عوامل ضعف المسلمين

سميح عاطف الزين

دار الكتاب اللبناني - بيروت

عوامل
ضعف المسلمين

سميح عاطف الزين

عوامل ضعف المسلمين

كتاب يجيب عن الأسئلة التالية :

ما هي العوامل التي أدّت إلى ضعف المسلمين ؟

هل أحسن المسلمون دائماً تطبيق الإسلام . ؟

كيف ينهض المسلمون من جديد . . . ؟

دار الكتاب اللبناني

دار الكتاب اللبناني
برقيا: كتالبان - بيروت
ص.ب: ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة السابعة
مزيدة ومنقحة
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إن موضوع هذا الكتاب يتعلق بعوامل ضعف المسلمين، ولا سيما عوامل هذا الضعف التي ظهرت في القرن العشرين الميلادي التي ما زالت تتفاعل بآثارها ونتائجها على ما نشهد ونرى دون أن نحرِّك ساكناً أو نعمل على تفاديها تحقيقاً لمصلحة المسلمين العليا...

على أن ما يجب التأكيد عليه مسبقاً هو التمييز بين ضعف المسلمين كشعوب تدين بالاسلام، وبين متانة الإسلام نفسه كدين لا يمكن أن يصيبه أي وهن أو ضعف، كما لا يمكن لأية قوة على وجه الأرض أن تبدِّل فيه شيئاً، لأنَّ الله تعالى ارتضاه ديناً للناس كافة، وتكفَّل - سبحانه - بحفظه خالصاً كما أنزله، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾...

لقد بذل أعداء الإسلام، منذ ظهوره جميع الجهود لخنقه في مهده. . . وتصلَّب الكفار في مناهضتهم له، بل واستماتوا كي يحولوا بينه وبين الناس، وكي يصدُّوا الناسَ عنه، ولكن تلك الجهود التي بذلوها باءت بالفشل فيئسوا من محاولاتهم الماكرة واستسلموا لعظمته رغماً عن أنوفهم، وحقت كلمة الله عزَّ وجلَّ عندما أتمَّ دينهُ القويم، وارتضاه نعمةً للعباد المؤمنين به، كما يؤكده التنزيل الحكيم بقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُم وَاخْشَوْن، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾.

- على أن هذه الحقيقة الثابتة التي تدلُّ على قوة الإسلام ومناعته، وعلى أن محاولات الكيد له أو القضاء عليه لا يمكن أن تنجح في حال من الأحوال. . . هذه الحقيقة لم يتَّعِظْ بها أعداء الإسلام، ولذلك ظل الطيش يغلب عليهم، ولم يفارقهم الشيطان بغوايته، فاستمرت محاولاتهم تلك في شتى المجالات وفي مختلف البلدان، وعلى مدى الأزمان. وها هي أعمالهم حتى اليوم تدل عليهم: ففي البلاد التي غزتها

الشيوعية فُرضت على المسلمين قيود قاسية، ومُنعوا حتى من ممارسة واجباتهم الدينية الشخصية. . . ورغم قسوة القوانين بحقهم، ومضي نصف قرن أو أكثر على صدور تلك القوانين، فإنَّ الإسلام لم ينتهِ هناك ولا يزال فكره النيِّر المعطاء يقضُّ مضاجع الملاحدة، ويثبت لهم فشلهم وخيبة أملهم في محاربة دين الله. . . كما أن الغرب الرأسمالي الاستعماري لم يكن بأهون شرّاً، إن لم يكن هو المدبِّر الأكبر للمؤامرات على الإسلام كما يدل عليه تاريخه الفكري السياسي والاقتصادي الذي حفل بأعتى الهجمات وأشدها شراسة على الإسلام وأهله، فيما قام به من حروب صليبية لتشتيت قوى المسلمين والسيطرة على ديارهم، وبما روَّج من مؤلفات وكتب وضعها خصيصاً للتجريح والطعن على الإسلام كي يشوه وجهه الناصع المشرق، أو بما نشر من عملاء مأجورين له في كل مكان، كي يبثوا الفتن والدسائس في صفوف المسلمين أنفسهم . . . ولكنه، ولله الحمد، ارتدّ في جميع ما قام به، أو بما روَّج ونشر، خائباً حسيراً؛ وبدل أن ينال من الإسلام فها هو الإسلام ينتشر في بلاده نفسها: في أوروبا، وفي أمريكا بشمالها وجنوبها انتشاراً واسعاً ملفتاً للنظر، حيث صارت المساجد

والمراكز الإسلامية قائمة في معظم عواصم الغرب ومدنه الكبرى.

ورغم أن الإسلام هو دين الله الحق، وهذا معتقد أساسي من معتقدات المسلمين، فإنَّ كثيرين منهم يتساءلون:

هل لدى المسلمين الإمكانية للتخلص من ضعفهم حتى يقدروا على حمل الإسلام من جديد؟

وهل بالإمكان تطبيق الإسلام في الوقت الحاضر؟

وإذا كان بالإمكان تطبيقه، فهل يتيسَّر دوام هذا التطبيق؟

إن هذه التساؤلات ناتجة عن الصورة التي شوَّه بها أعداء الإسلام التاريخ لصالحهم، وأظهروا المسلمين على غير حقيقتهم؛ كما هي متأتية عن الصعوبة في تقريب الحكم الإسلامي إلى أذهان خضعت لحكم الواقع القائم بحيث لم تعد هذه الأذهان قادرة على أن تتصوَّر النظام الإسلامي إلا في مقياس ما ترى من الأنظمة الديموقراطية المطبقة عليها، وذلك بعد أن طُبعت بالثقافة الأجنبية، وصار من أصعب الصعوبات تحويلها عن هذ الثقافة..

إذن فالداء هنا يكمن بإغفال الموجهين المسلمين لأثر

الثقافة الاجنبية وما تنتجه من مصائب عليهم. . . فكانوا يحاربون المستعمر في الوقت الذي يتناولون منه ثقافته، من غير أن يفكروا بأنها هي السبب في استعمارهم، وبها يتركّز الاستعمار في بلادهم. . . إذن فلينظر المسلمون كم يكون وضعهم متناقضاً تناقضاً مزرياً، ومضحكاً معاً، وهم يدّعون محاربة الأجنبي الذي يستغلُّهم، بينما هم يديرون له ظهورهم، ويمدون إليه أيديهم من خلفٍ، ليتناولوا بطواعية وشغفٍ سمومَ ثقافته القاتلة، فيتجرعوها ويسقطوا من حيث لا يدرون، صرعى بين يديه، يحسبهم الجاهل شهداءَ نِزّالٍ وما هم، في الحقيقة، إلا صرعى غفلةٍ وتضليل. . .

فماذا يريدون؟ أيريدون دولاً متعددة؟ لقد أعطاهم الغرب ، منذ صار إليه الأمر ، دويلات كثيرة ، ليمعنَ في تمزيقهم وليُتمّ خطته في تقسيم بلادهم ، وبالتالي ليبعدهم عن تطبيق الإسلام الذي يجمع ولا يفرق . . .

إن هذا الكتاب يحتوي على بعض الأدلة والبراهين التي تؤكد أن الإسلام قد طبق طيلة ثلاثة عشر قرناً ونيِّف، وهو وحده القابل للتطبيق في كل زمان ومكان، ما دام كتابه القرآن

الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، عمادَ الدين والدنيا، وما دامت سنّة رسوله محمد ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، الأساس الثانيَ للحكم والنظام . . .

والكتاب يأتي أيضا بالقرائن التي تثبت إدانة المستعمر، وبأنه هو وعملاؤه، هم الذين يشوّهون الحقائق، ويضعون العراقيل أمام الذين يسعون لتطبيق أحكام الإسلام والدعوة اليه حفاظاً على مصالحهم ، وتحسباً من ضياع نفوذهم وسيطرتهم . . ومن هنا كانت الصعوبات التي تحول دون وصول الأحكام الإسلامية إلى معترك الحياة حتى تثبت صلاحيتها وتأثيرها في اصلاح أمور الحياة ومواجهتها بأنجح الوسائل والاساليب . . . ولكن ! . . . طالما أن الإسلام قويٌّ بذاته ، وهو محفوظ بحفظ الله تعالى ، وباقٍ إلى يوم القيامة ، فإن نهضة المسلمين بواسطة الإسلام وبالعمل به ممكنةٌ في كل زمان ، وهذا ما يجب أن يضعه المسلمون نصب أعينهم ، وملء بصائرهم ، وما يجب أن يجنّدوا له جميع الطاقات في كل آن . . .

معنى: ضعف المسلمين

نعني بضعف المسلمين: «كونهم على حالة لا يرضاها الله تعالى لهم، ولا تشكل نتيجة للعمل بالاسلام». والعمل بالاسلام ـ ويا للأسف ـ غير قائم في بلاد المسلمين حيث نجح أعداؤه في إقصائه عن المجالات العامة كالسياسة والاقتصاد والتعليم وغيرها، فترتب على ذلك واقع بلغ غاية السوء يظهر جليا في الأمور الآتية:

أولا: تجزئة بلاد المسلمين وتقسيمها جغرافياً حتى تجاوز عدد أجزاء العالم الإسلامي الخمسين، وصار لكل جزء دولة، ولكل دولة حاكم ونظام، وكل نظام يناقض الآخرين ولا يأتلف معهم على الحق، بل أحيانا تشتد تلك التناقضات وتقوى حتى تقع بين المتناقضين حروب ومعارك عسكرية ضارية، وانحصر كل شعب من شعوب الأمة الاسلامية ضمن

حدود الدولة المرسومة له، فإن غادرها إلى الدولة المجاورة فهو أجنبي غريب يجب الحذر منه وفرض القيود عليه في الاقامة والعمل.

ثانيا: فقْدِ الشعوب الاسلامية لحقها في اختيار حاكمها (الخليفة) وبناء نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي وغير ذلك وفقا لأحكام الشريعة الاسلامية.

ثالثا: وقوع البلاد الاسلامية تحت نفوذ المعسكرات والقوى الكبرى الى حد فقدت فيه إمكانية التصرف في ثرواتها وقراراتها.

رابعا: عجز المسلمين في العالم ـ والعرب منهم خاصة ـ عن تحرير بيت المقدس وسائر الأراضي التي يحتلها اليهود في بلاد الشام وإزالة دولة اليهود المغتصبة لفلسطين، وكذلك عجزهم عن مساعدة إخوانهم المسلمين المضطهدين في الفلبين والهند ولبنان وغيرها.

خامسا: غربة الإسلام في كثير من بلاد المسلمين بسبب تغريب الفكر الإسلامي وتأثره بالتيارات الفكرية المعادية للإسلام ـ كما سنبين في عوامل ضعف المسلمين ـ.

إن حالة الضعف التي أشرنا إلى أهم مظاهرها وآثارها لم تحل بالمسلمين وهم عاملون بدينهم متمسكون بكتاب ربهم وسنة نبيهم، إذ لو كانوا كذلك لما وهنوا ولما ضعفوا.

فما هي العوامل التي أدت إذن إلى ضعفهم على هذا النحو الذي نراه اليوم؟

عوامل ضعف المسلمين

قبل أن نفصل القول في أهم عوامل ضعف المسلمين نرى من المفيد أن نستعرض محاولات أعداء الإسلام منذ أيامه الأولى للقضاء عليه بالمواجهة العسكرية كما فعل كفار العرب زمن البعثة النبوية، أو بالخداع والتضعيف من الداخل كما فعل المنافقون زمن النبيِّ ﷺ، أو بتدبير المؤامرات وبث الفتن كما فعل اليهود في المدينة وضواحيها وفي خيبر، وكما فعل أمثال أولئك جميعاً حتى انتهاء آخر خلافة إسلامية في الربع الأول من القرن العشرين الميلادي؛ وهذه الخلافة ـ أو انتهاء هذه الخلافة ـ هو بيت القصيد من هذا الكتاب حيث سنبين ـ إن شاء الله ـ أهم العوامل التي أدت إلى جعل الخلافة الإسلامية ضحية مؤامرات أعداء الإسلام، وضعف المسلمين أمام تلك المؤامرات . . .

إن مما لا شك فيه أن قوة المسلمين تقوم على مبدأ

الإسلام، ففيه وحده بقاؤهم أعزّة كرماء، وبه وحده ارتقاؤهم وتقدُّمهم. فهو، إذن، قوام وجودهم، وعماد أمرهم، وقد أدرك ذلك أعداؤهم منذ ظهور الإسلام، وعرفوا أنهم لن يستطيعوا إضعافهم ما دام الإسلام قويّا في النفوس؛ فعمدوا إلى إيجاد السبل والوسائل التي تُضعف فَهم المسلمين له، وتُضعف تطبيقهم لأحكامه، وتؤدي بالتالي إلى وهنهم هم، والسيطرة عليهم.

وهكذا ظل المسلمون في صراع مع أعدائهم يصدُّون مؤامراتهم ويُفشِّلون خططهم في أكثر الأحيان، إلا أن أولئك الاعداء تمكنوا من غرس بذور شرِّهم، وتابعوا تعهدها وتغذيتها حتى حققوا غايتهم بإيصال المسلمين إلى ما هم عليه اليوم من ضعف وتخلف وتفرقة وتمزُّق . . أما الأساليب والوسائل التي استعملها أعداء الإسلام في الماضي لإضعاف فهمه لدى المسلمين والتشويش عليهم فكثيرة، منها ما يتعلق بجانب من نصوصه، ومنها ما يتعلق بانطباقه على وقائع الحياة؛ وهُمْ قد نجحوا في بعض تلك الوسائل والأساليب، ولكنهم فشلوا في بعضها الآخر فشلا ذريعاً.

ولعل أخطر محاولاتهم التي فشلوا فيها ـ ولله الحمد ـ

هو دسُّهم في الأحاديث والأخبار المرويَّـة عن النبي ﷺ والتي تعرف في الإسلام بـ «السنَّـة النبويَّـة» حيث عمد البعض من الزنادقـة والمندسِّين في صفـوف المسلمين، وأصحاب الآراء الزائفة الى الأحاديث النبويَّة يدسَّون فيها أحاديث مكذوبـة لم يقلها الرسول ﷺ أبداً؛ ولكنهم زوَّروها وضمَّنوها معاني غيـر إسلامية ومفاهيم تناقض الإسـلام، وذلك لتـرويج ضـلالاتهم ونصرة أهوائهم، ولكي يأخذهـا المسلمون ويعملوا بمـا فيها، فيبتعدوا عن الإسلام، أو يناهض بعضهم بعضاً. . .

غيـر أن المسلمين فطنـوا لهؤلاء الزنـادقة والمضلِّلين، وقضوا على مؤامراتهم؛ فهبَّ العلماء ورواة الحديث يجمعونه ويضعون تاريخ رواته وأوصـافهم، ويبيِّنون الحـديث الصحيح السليم من الضعـيف والمكـذوب، حـتى حُـفظ الحـديـث الشـريف، وصنِّف في مؤلفات معـروفـة مشهـورة كصحيحي الإمامين مسلم والبخاري.

وقد حُصر أيضاً رواة الحديث وعرف كل واحـد منهم، وأُلِّفَت كتب كثيـرة في هؤلاء الرواة وأحـوالهم، وأقوال علمـاء الحديث في كل واحد منهم من حيث توثيقه أو تضعيفه، كمـا

بُيِّنت طبقات كتب الحديث، حتى أصبح بإمكان المسلم إذا ما تتبع الحديث أن يعرف صحته من ضعفه، بمعرفة سنده ومتنه. وبذلك لم يكن لهذه المؤامرة أثر يذكر، ولم يتمكن أحد بعد ذلك من العبث بالسنَّة النبويَّة، أو الدس فيها بفضل الله تعالى، ثم بسبب يقظة علماء الحديث المستمرة المتواصلة، حتى فوجئنا في السبعينات من هذا القرن (العشرين ميلادي) بحملات مأجورة، يقولها عملاء زنادقة ومأجورون مرتزقة تجدِّف على الأحاديث النبويَّة، وتشكك في أصلها وثبوتها، وصحة نقلها وروايتها. والهدف من هذا الطعن بالسنَّة النبويَّة معروف، فهو ليس خدمة الإسلام كما يزعمون ويضلِّلون، بل القضاء عليه باعتبار أن السنَّة النبويَّة هي تفسير للقرآن وبيان لآياته وأحكامه، فإبعاد السنَّة عن أصالتها، والقضاء على صحة الاستدلال بالحديث النبويّ في الأحكام الشرعية، من شأنه أن يؤدي إلى تعطيل أكثر الأحكام في الشريعة الاسلامية وإلى عدم فهم القرآن، كما كان يوضح مدلولاته النبي ﷺ الذي هو المبلِّغ والمبيِّن لآياته.. وهكذا لم يفلح هذا التشكيك الجديد حيث أتى، ولم يؤثر في مكانة السنَّة الشريفة، ولا في الثقة بها، بل زاد، ويزيد، من حرص المسلمين عليها وحذرهم من

أعداء الإسلام والعملاء المندسّين بينهم. . .

أما بالنسبةِ لانطباقِ الإسلامِ على وقائعِ الحياةِ . فقد عمدوا في القرون الأولى إلى التشويش على الإسلام واعطائه وجهاً غير وجهه الحقيقي كتفسيرهم بعض الآيات والأحاديث الواردة في « الزهد » على غير معناها الصحيح ، في محاولة لخلط الفلسفة الهندية بالإسلام ، ففسروا الزهد في الدنيا وطَلَبَ الآخرة بالتقشّف وتعذيبِ الجسدِ ، فانصرف بعض ضعاف النفوس من المسلمين الذين هم في الواقع جاهلون في الإسلام عن العمل من أجل الحياة وعن خوض غمارها إلى العزلة والخمول والتواكل ، وهم يظنون أنهم قد أصبحوا بذلك زهاداً عباداً ، مما أدى إلى ضياع جهود كثيرة لأبناء هذه الأمة كان عليهم أن يستخدموها في الدعوة إلى الإسلام بدل هدرها فيما لا فائدة فيه ، ولكن ذلك لم يؤثر على مسيرة هذه الأمة التي تابعت طريقها طبقاً لأحكام الإسلام محقِّقة تقدماً تلو الآخر وانتصاراً إثر انتصار ، ولكننا لا نعني بكلامنا هذا أن المسلمين كانوا دائماً هكذا في تقدم وازدهار بل كانت هناك فترات عصيبة حزينة تخللت مراحل تاريخهم المجيد كالغزوَيْن التتاري والصليبي بالإضافة إلى بعض التناقضات التي برزت

أحياناً بين المسلمين أنفسهم كتلك التي حصلت بين أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أو كتلك الصراعات المذهبية التي شقّت وحدة المسلمين وألهتهم عن واجبهم في نشر الإسلام ونقله للناس ، جميع الناس .

أما عوامل ضعف المسلمين في الفترة الأخيرة من تاريخهم وخاصة في القرن العشرين فإننا سنبيِّن أهمها وأخطرها تحت العناوين التالية مقدِّمين لذلك عرضاً لحالة الخلافة الإسلامية في عهدها الأخير :

أولاً : الغزو التبشيري وبعث القوميات .

ثانياً : الجمعيات والحركات السرية .

ثالثاً : جعل السلطة بيد العملاء لمصلحة العدو .

رابعاً : إضعاف اللغة العربية .

(١) الخلافة الإسلامية في عهدها الأخير

لقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي انقلاباً خطيراً في الأفكارِ الأوربية على أثر المجهودِ الكبيرِ الذي بذله الفلاسفةُ

والكتّابُ والمفكرون والتغيير الشامل الذي طرأ على الفكر الأوربي لإحياء الشعوب ، فنشأتِ الحركاتُ المتعددةُ التي كان لها أثر في إحداث آراء جديدة في وجهةِ النظر في الحياة . وكان من أهمّ ما وقع تعديل الأنظمة السياسية والتشريعية . فقد زال شبح الملكية المستبدة تدريجياً في أوربا ، وحلت محلها أنظمةٌ حكومية جديدة قائمةٌ على الحكم النيابي وسيادة الأمة ، فكان لهذا أثرٌ كبير في توجيه النهضة الأوربية ، كما كان للانقلاب الصناعي الذي ظهر في هذا القرن في أوربا تأثير كبير . فكان من جرّاء هذه القوى المادية والتقدم العلمي والفكري أنْ رجحت كفةُ العالم الأوربي على العالم الإسلامي ، في الموقف الدولي ، رجحاناً بيناً ، فتغير مفهومُ المسألةِ الشرقيةِ ، فلم تعد المسألةُ مسألةَ اتقاءِ الأخطارِ الاسلامية على أوربا ، وإنما صارت مسألةَ الإبقاءِ على الدولةِ العثمانية أو تقسيمها ، حيث اختلفت عليها الدول نظراً لاختلاف المصلحة ، وكان هذا الانقلابُ في مفهومِ المسألةِ الشرقيةِ وما طرأ على أحوالِ أوربا من الارتفاعِ الفكري ، والتقدم العلميّ ، والثورةِ الصناعية ، بسبب إبعادهم سلطة الكْنيسة وأنظمتها عن نظام حياتهم العام وما طرأ على الدولة

العثمـانيـة من الضَعْفِ والتفكـكِ ، كـلُّ ذلـك أدى إلى هـذا الانقـلابِ السياسيّ ، فـرجحت كفة الأوربيين ، وخفت كفـة المسلمين .

وقد رافق ذلك أنها تخلّفت المعارفُ الإسلامية ، وبقيت الكتب والثروات العلميةُ محفوظةً في خزائِنِها ، ولم يَعُدْ هنالكَ علماءُ مفكرون إلا قليلون ، وقلت الرغبة في البحث والتنقيب عن الحقائق ، وصارت المعـارف لا تطلب للعمـل بها ؛ لأن الدولة لا تشجعهـا ، بل صـار العلماء يـطلبون العلم والثقـافة للتـرف العقلي ويطلقـون عليه « انـه طلب العلم للعلم » ، أو يطلبون العلم للارتزاق . وقلَّ منهم من يطلب العلم لنفع الأمة والدولة ، فكان من جراء ذلـك أن المسلمين صاروا يفهمـون الإسلام فهماً روحياً أكثر منه فهماً فكرياً وسياسياً وتشريعياً ، إذ غمضت عليهم فكرته الأصليـة ، وطريقتـه التي تنفذ بهـا هذه الفكرة ، فعمي عليهم فهم الكتاب والسنة ، فصاروا يفهمـون الإسلام مجرد دين روحي فحسب ، ويقارنون بينـه وبين باقي الأديـان ، بدل أن ينـظروا إليه عقيـدةً ونظامـاً لجميعِ شؤونِ الحياة ، ولذلك لم يكن غريباً أن تقفَ الأمّة الإسلامية موقفَ الجمود والحَيْرَةِ والقلقِ من الحركة الانقلابية التي حصلت في

أوربا ، وأن تظل متأخرة تأخراً ظاهراً دون أن تتأثر بالرقي الاقتصادي الذي شمل أوربا ، اللهم إلا تأثراً جزئياً بشكل مضطربٍ لم تكن له فائدة . ثم لم يمكنها ذلك من التقدم المادي ، بل لم يمكنها من وقفِ عجلة التأخر التي كانت تهوي بها إلى الانخفاض والضَعْف . . وهكذا وقف المسلمون تجاه الحركة الانقلابية في أوربا وقفة الحائر ، أيأخذونها أم يتركونها . . فكثيرون كانوا يرونها أنها جميعها تتعارض مع الإسلام ، ولذلك نادوا بتحريم الأخذ بها ، في حين رأى آخرون بالمقابل ضرورة الأخذ بكل شيء من الغرب : من علم وثقافة وحضارة ومدنية ، وهؤلاء كانوا من الذين تعلّموا في أوربا أو في المدارس التبشيرية التي كانت قد دخلت البلاد ، ولم يكن لهم تأثير في أول الأمر . . أما جمهرة الناس فقد كانت تحمل فكرة محاولة التوفيق بين الإسلام وبين الثقافة والعلوم والحضارة والمدنية التي يحملها الغرب ، ولذلك سادت في أواخر الدولة العثمانية فكرة مؤداها أن الغرب أخذ حضارته من الإسلام ، وأن الإسلام لا يمنع أخذَ ما يوافقه والعملَ بما لا يخالِفُهُ ، وقد نجح الغربُ في نشرِ هذه الفكرةِ حتى سادت ، وحملها جمهرةُ الناس ولا سيّما المتعلمون ،

الذين كان كثير منهم يُعَدُّون من الفقهاء والعلماء ، فسموا علماء عصريين ، وأطلق عليهم أنهم مصلحون . ونظراً للتناقضِ الحقيقيّ بين الحضارةِ الغربيةِ والحضارةِ الإسلامية ، وللتباينِ الواضحِ بين الثقافةِ الغربيةِ وما تتضمّنُهُ من معانٍ تتعلّقُ بوجهةِ النظرِ في الحياةِ ، وبين الثقافة الإسلاميةِ وما تتضمّنُهُ من معانٍ تتعلّق بطريقةِ الحياة ، كل ذلك أدى إلى إبعادِ هؤلاءِ عن الإسلام ، وإدنائهم من الأفكار الغربية ولكن بشكلٍ مضطربٍ أعجزهم عن فهمِ أفكار الغرب مع ابتعادهم عن الإسلام ، فكان لذلك أثر كبير في إهمال الاختراعات والعلوم والصناعات ، وأثر كبير في سوء فهم الإسلام ، مما جعل الأمة تتحول إلى هذه المجموعة المتناقضة في الأفكار ، وإلى عدم استطاعة الدولة أن تجزم في فكرٍ معيّن ، ومما أدى إلى الإعراض عن الأخذِ بوسائلِ الرقيّ المادي من العلومِ والاختراعاتِ والصناعاتِ وبذلك ضعفت الأمة ضَعْفاً ظاهراً حتى أصبحت غيرَ قادرةٍ على الوقوفِ ، وعاجزةً عن حمايةِ نفسها ، فكان من جراء هذا الضعف أن أخَذَ الغربُ يَقْتَطِعُ أجزاءَ الدولة الإسلامية جزءاً جزءاً وهي عاجزةٌ مستسلمةٌ .

فهذه روسيا في عهد كاترين سنة ١٧٦٢ ـ ١٧٩٦ م

حاربت العثمانيينَ وتغلّبت عليهم واقتطعت بعضَ أراضيهم ، وأخذت منهم مدينة آزوف وشبه جزيرة القرمِ ، واستولت على جميعِ الحوض الشمالي للبحر الأسود ، وأنشأت مدينة سباستبول قاعدة لها في شبهِ جزيرةِ القرم ، كما أنشأت ميناء أوديسا التجاري على البحر الأسود ، وأصبحت روسيا عاملاً هاماً في سياسةِ الدولةِ العثمانيةِ الخارجيةِ ، وصارت صاحبةَ السيادةِ في الامارات الرومانية واعتبرت نَفْسَهَا حاميةَ المسيحيّةِ في الدولةِ العثمانية .

ثم اقتطعت بلاد التركستان ، ثم اكملت احتلالها للقفقاس جميعِهِ . ولم يقتصر الأمر على روسيا وحدها ، بل شمل ذلك بقيةَ الدولِ الغربيةِ ففي أول تموز سنة ١٧٩٨ م هاجم نابليون مصر واستولى عليها . وفي شباط سنة ١٧٩٩ م هاجم الجزء الجنوبي من بلادِ الشامِ واستولى على غزة والرملة ويافا ، ووقف على حصون عكا ، إلا أن حملَتَهُ هذهِ لم توفق ، فرجع إلى مصر ثم إلى فرنسا وفشلت الحملة سنة ١٨٠١ م . ومع فشل هذهِ الحملةِ فقد أثرت في كيانِ الدولةِ العثمانية وكانت هزة عنيفة لها . وتتابعت سائر الدول تهاجم العالمَ الإسلامي وتستولي على أجْزَائِهِ ، فقد احتل الفرنسيون سنة

١٨٣٠ م الجزائر ، وعملوا حتى احتلوا تونس سنة ١٨٨١ م ثم احتلوا مراكش سنة ١٩١٢ م كما احتلت ايطاليا ليبيا سنة ١٩١١ فتم بذلك اقتطاعُ شمال افريقيا . كما احتلت بريطانيا عدن سنة ١٨٣٩ وبسطت حمايتها على لحج والمحميات التسع من حدودِ اليمنِ الجنوبية إلى شرقِ الجزيرةِ . وكان الإنكليزُ قد استولَوْا على الهندِ قبلَ ذلكَ التاريخِ بمدةٍ طويلةٍ ، وانتزعوا باستعمارهم لها سيادةَ المسلمين ، وأخذوا يعملون على اضعافِ موقفِ المسلمين فيها بوجه عام . ثم في سنة ١٨٨٢ استولت بريطانيا على مصر وفي سنة ١٨٩٨ ، استولت على السودان . كما كانت هولندا تسيطر على جزر الهند الشرقية ، وحوصرت افغانستان تحت الضغط الإنكليزي والروسي ، كما حوصرت إيران ، واشتدت حملةُ الغربيين في كلِّ مكانٍ على العالمِ الإسلامي ، حتى شعر جميعُهُ بتعرّضِهِ للسقوطِ نهائياً تحت نيرِ الغربِ ، وشعرَ أن الحملةَ الصليبية تجددت تُحرز الانتصار تلوَ الانتصار ، وصار يتشبثُ بأعمال لوقفِ هذا الزحفِ الغربي عند حدِّهِ ، أو للتخفيف من ثقلِ كابوسِهِ . ثم حدثتْ حركاتٌ من المقاومةِ للغربيين في أكثر من مكانٍ ، فنشبت ثورةٌ في الجزائر ، وهب المسلمون في الصين

وقام المهديون في السودان . واشتعلت الثورةُ السنوسية فكان كل ذلك دليلاً على الحيوية الكامنة في العالم الإسلامي رغم ركوده وضعفه ، إلا أن هذه المحاولات كلّها اخفقت نهائياً ، وأخذ الغرب يعمل للقضاء على الدولة العثمانية باعتبارها الدولة الإسلاميةَ التي تمثل المسلمين فقد أقام في داخلها **الحركات القومية** ، إذ أخذت الدول الأجنبية تحرض شعوب البلقان على الثورةِ منذ سنة ١٨٠٤ م وتمدهم لهذه الثورات ، حتى انتهت ثوراتهم بالاستقلال سنة ١٨٧٨ م كما حرضت اليونان على الثورة منذ سنة ١٨٢٠ حتى انتهت ثورَتهم بسبب تدخل الأجنبي باستقلال اليونان عن تركيا سنة ١٨٣٠ م حتى تقلص ظلُّ الدولة العثمانية عن البلقان وعن كريت وقبرص وأكثرِ جزرِ البحر الأبيضِ المتوسط ، فأجلوا الكثيرين منهم عن ديارهم ولجأوا إلى بلادِ العرب بوصفها بلاداً إسلامية ، وما هؤلاء الجركس وامثالهم إلا أبناء أولئك الأبطال من المسلمين الذين فروا بدينِهِمْ إلى ديارِ الإسلام .

ولم يقتصرِ الأمرُ على ذلكَ ، بل قام الغربيون بوسائِلِهِم الخفية بتشجيعِ الحركاتِ الانفصالية عند المسلمين أنفسهم في داخل كيان الدولة بين الترك والعرب فشجعوا الحركات

القومية وساعدوا على قيامِ الأحزاب السياسية التركية والعربية ، كحزب تركيا الفتاة ، وحزب الاتحاد والترقِّي ، وكحزب الاستقلال العربي ، وحزب العهد الخ . . .

مما جعل كيان الدولة داخلياً في اضطراب واهتزاز ، فأخذ يميلُ تحتَ هذهِ الأحداث الداخليةِ مع الغزوات الخارجية ، وما إن جاءت الحَربُ العالميةُ الأولى حتى وجد الغرب الفرصةَ مواتيةً لغزوِ العالمِ الإسلامي والاستيلاء على ما تبقى من بلاده فدخلت الدولة العثمانية الحربَ العالمية الأولى التي انتهت بانتصار الحلفاء وهزيمتها . فتقاسم الغربيون جميع العالم الإسلامي غنيمة لهم ، ولم تبق منها إلا بلادُ الترك التي صار يطلقُ عليها اسم « تُركيا » وبقيت تحت رحمتهم منذ انتهاء الحرب سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٢١ حيث استطاعت الاستقلال بعد تأمينها للحلفاء القضاءَ على الخلافةِ وعلى دولةِ الإسلامِ على يدِ مصطفى كمال[١] .

والظاهرُ من تتبعِ خطواتِ مصطفى كمال أن موافقة الحلفاء على طردِ اليونانيين من تريس وجلائهم هم أنفسهم عن استانبول وتركيا بأسرها كانت مقابل أن يقضي مصطفى كمال

(١) أطلق عليه لقب « أتاتورك » أي : أبو الأتراك ، ولد سنة ١٨٨١ ومات عام ١٩٣٨ ودفن في « أنقرة » .

على الحكم الإسلامي ، ولذلك تجده حين ناقشته الجمعية الوطنية في أمر تركيا بعد الانتصارات التي أحرزها ، خاطبها بقوله : (أنا لست مؤمناً بعصبةٍ من الدولِ الإسلاميةِ ، ولا حتى بعصبة من الشعوب العثمانيةِ ، ولكل منا أن يعتنق الرأيَ الذي يراه . أما الحكومة فينبغي أن تلتزم سياسةً ثابتةً مرسومةً مبنيّةً على الحقائقِ لها هدفٌ واحد فقط ، أن تحميَ حياةَ الوطنِ واستقلالَهُ داخلَ نطاقِ حدودِهِ الطبيعيةِ ، فلا العاطفةُ ، ولا الأوهامُ ينبغي أن تؤثّر في سياستِنا وسحقاً للأحلامِ والخيالات لقد كلفتنا غالياً في الماضي) .

وهكذا أعلن أنه إنما يريد استقلالَ تركيا بوصفِها شعباً تركياً ، لا أمةً إسلاميةً .

(٢) بَعْث القوميّات
عَن طريق الغزو التبشيريّ

أَخَذَتْ أوربا تَغْزُو العالمَ الإسلامي غزواً استعمارياً عن طريق التبشيرِ باسمِ العلمِ والإنسانيةِ ، ورصدت لذلك الميزانياتِ الضخمةَ . وذلك لتمكين دوائر الاستخباراتِ

السياسية ، ودوائر الاستعمار الثقافي من القيام بالدور المرسوم لهـا . وبهذا فُتِح بـاب العـالم الإسـلامي علىٰ مصـراعيـه ، وانتشرت الجمعيات التبشيرية في كثيرٍ من البلدان الإسلامية . وكان معظمها جمعيات انكليزية وفرنسية وأمـريكية . فتغلغـل النفـوذ البـريـطاني والفـرنسي عن طـريقهـا ، وأصبحت هـذه الجمعيـات مع الـزمن هي المـوجهـة للحـركـات القـوميـة ، وأصبحت هي المسيطرة على توجيه المتعلمينَ من المسلمين ، أو توجيه القوميةِ العربية والقـومية التـركية لغـرضين رئيسيين : الأول فصـل العرب عن الـدولةِ العثمـانيةِ المسلمـة لـلإجهـاز عليها ، وأطلقوا عليها اسم (تركيا) لإثارةِ النعرةِ العنصرية .

الثاني : ابعاد المسلمين عن الـرابطة الحقيقيـة التي لـم يكونوا يعرفون سواها وهي رابطة الإسلام .

وقـد انْتَهَوْا من الغـرضِ الأول ، وبقي الثاني قـائمـاً . ولذلك سيظل التوجيهُ إلى القوميةِ عند الترك والعرب والفـرس والأكراد وغيرهم هـو الإسفين الذي يفـرق وحدة المسلمين ، ويعميهم عن مبـدئهم الإسلامي . وقـد مرت هـذهِ الجمعياتُ التبشيـريـةُ بأدوار عـديـدة ، وكـان أثـرهـا بليغـاً في العـالم الإسلامي ، ومن نتائجه ما نعانيه اليوم من ضعف وانحطاط ،

لأنها كانت اللبنة الأولى التي وضعت في السد الذي أقامه الاستعمار بيننا وبين النهوض . والذي حملهم على إنشاء هذه الجمعيات التبشيرية ما عانوه في الحروب الصليبية من صلابة المسلمين وصبرهم على الجهاد ، وذلك أن الغربيين حين لاقوا المسلمين في ساحة القتال ، كانوا يعتمدون على أمرين حسب رأيهم :

أولهما : اعتمادهم على النصارى الذين كانوا يسكنون العالمَ الإسلاميَّ إذ كان في البلادِ الإسلاميةِ نصارى كثيرون ، وخاصة في بلادِ الشام . وكان هؤلاء النصارى ممن يتمسكونَ بدينِهِم ، فكانوا يعتبرونهم إخواناً في الدين وظنوا أنهم سيكيدون للمسلمينَ ، وسيكونون عوناً لهم عليهم ، بحجة أنهم أثاروا حربَهم هذه حرباً دينية .

ثانيها : كانوا يعتمدون على كثرةِ عددِهِمْ ، وعظم قوتهم ، على حين كان المسلمونَ متقاطعين متدابرين ، قد بدأ الانحلال يدب في كيانهم فظنوا أنهم إذا هزموهم أول هزيمة اخضعوهم إلى الأبد ، وسهل القضاءُ عليهم ، ولكن خاب فألهم ولم يصدقْ حدسُهُمْ . وكم كانت دهشتُهم عظيمةً حين رأوا في أثناءِ الحروبِ أن النصارى العربَ وقفوا بجانبِ

المسلمينَ ، وحاربوا معهم ، ولم تؤثر فيهم الدعايات ، لأنهم كانوا يعيشون معهم ، ويطبق عليهم نظامٌ واحدٌ ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، يأكل المسلمون من طعامِهِمْ ، ويخوضون معتركَ الحياةِ معاً ، فالإسلامُ ضمن لهم جميعَ حقوقِهم ، وسار على العملِ بذلك الخلفاءُ والحكامُ ، وقد قال الفقهاء : « يجب اخلاص النصح لهم في جميع أمورهم ، ودفع من تعرض لإيذائهم ، وصون اموالهم وعيالهم واعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم ، وأن يفعل معهم كلَّ ما يحسن بكريمِ الأخلاق أن يفعلهُ » . وهذا كله جعل النصارى يدافعون طبيعياً مع المسلمين .

وكانت دهشةُ الصليبيين اعظمَ حين رَأَوْا أن الأمرَ الثانيَ لم يحققْ ظنّهم . لقد استولوا فعلاً على بلاد الشامِ وهزموا المسلمين شر هزيمة ، واستعملوا أشد الفظائع ، وكانوا أول من ابتدع عملية إجلاء المسلمين عن ديارهم . وساروا على ذلك أيضاً في جميعِ حروبهم مع المسلمين . وظلت هذهِ طريقَتَهُمْ حتى الآن ، كما حصل في فلسطين . . وكانوا يظنون أن الأمرَ قد استتبّ لهم ، وأنه لن تقومَ للمسلمين قائمةٌ . ولكن المسلمين ظلوا مصممين على إخراجهم من بلادهم ،

وبالرغم من مكثهم مدة تقرب من قرنين ، أقاموا فيها ممالك وامارات في بلاد الشام ، فإن المسلمين استطاعوا في النهايةِ أن يتغلّبوا عليهم ويطردوهم من ديارهم .

وقد بحثوا عن السر في ذلك كله فوجدوه في الإسلام ، لأن عقيدته هي منشأ هذه القوة العظيمة في المسلمين ، وأحكامه بالنسبة لغير المسلمين ضمنت لهم حقوقهم ، فنتج هذا التماسك بين الرعية ، ولذلك فكروا بطريقة أخرى يغزون بها العالم الإسلامي ، فوجدوا أن خير طريقٍ هي سلوكُ الغزوِ الثقافي عن طريقِ التبشير ليكسبوا النصارى إلى جانبهم ، وليثيروا شكوك المسلمين في دينهم ، ويزعزعوا عقيدتَهُمْ .

ونفَّذوا ذلك بالفعلِ ، فأسسوا في أواخر القرن السادس عشر مركزاً كبيراً للتبشير في « مالطة » ، وجعلوها قاعدة هجومِهم التبشيري على العالم الإسلامي إذ منها كانت ترسل قواتُ التبشير ، فإنهم بعد أن استقر بهم المقامُ ومَكثوا مدّة ، شعروا بضرورةِ مدِّ نشاطِهِمْ ، فانتقلوا لبلادِ الشام سنة ١٦٢٥ م ، وحاولوا ايجاد الحركات التبشيرية ، غير أن نشاطهم كان محدوداً جداً ، لم يتعد تأسيس بعض المدارس الصغيرة ، ونشر بعض الكتب الدينية . وعانوا مشقات كبيرة

من اضطهاد ، واعراض ومحاربة من الجميع . إلا أنهم ثبتوا حتى سنة ١٧٧٣ م ، حيث الغيتِ الجمعيات التبشيريةُ لليسوعيين ، واغلقتْ مؤسساتُهم ما عدا بعض الجمعياتِ التبشيريةِ الضعيفةِ كجمعيةِ المبشرين العازاريين . وبالرغم من وجودها انقطع اثرُ المبشرين والتبشير ، ولم يعد لهم وجودٌ إلا في مالطة حتى سنة ١٨٢٠ م ، حيث أسس أول مركز للتبشير في بيروت ، وبدا نشاطُهُمْ فيها فلاقَوْا صعوباتٍ كثيرةً ، وبالرغم من هذه الصعوباتِ استمروا في عملهم . وكانت عنايتهم الأولى منصرفةً إلى التبشير الديني والثقافة الدينية ، وعنايتهم بالتعليم ضعيفة ، وفي سنة ١٨٣٤ م انتشرتِ البعثاتُ التبشيرية في سائر بلادِ الشام ، ففتحت كليّة في **قرية عينطورة** في لبنان ، ونقلت الإرساليةُ الأميركيةُ مطبعتها من مالطة إلى بيروت ، لتقوم بطبع الكتب ونشرها . ونشط المبشر الأمريكي المشهور (إيلي سميث) نشاطاً ظاهراً ، وفتح هو وزوجته مدرسة للإناث ، واتسع المجال أمامه ، وكان قيام إبراهيم باشا بتطبيق برنامج للتعليمِ الابتدائي في سوريا ـ مستوحى من برنامج التعليمِ الموجودِ في مصر ، المأخوذِ عن برامجِ التعليمِ في فرنسا ـ فرصة لهؤلاء المبشرين ، فاغتنموها

وساهموا في الحركة التعليميةِ من وجهةِ النظر التبشيريـةِ ، ثم شملت حركةَ الطباعة . وبذلـك نشطَت الحـركة التبشيـرية ، وشاركت في الحركة التعليمية مشاركة ظاهرة . وقد استطاعـوا بنشاطِهِم هذا أن يـوغروا الصـدورَ بين الرعـايا بـاسم الحريـة الدينية . وأوجدوا بين المسلمين والنصارى نشاطاً دينيـاً يتّصل بالعقيدة . وحين انسحب إبراهيم باشا سنة ١٨٤٠ م من بـلاد الشام انتشر القلقُ والفوضى والاضطرابُ فيها ، وانقسم الناسُ على أنفسهِمْ واغتنم المـوفدون الأجـانبُ فرصـة ضَعْفِ نفـوذ الدولة العثمانية في البلادِ وأخذوا يُشْعِلونَ نارَ الفتنة . ومـا مرَّ عام واحد وحلت سنة ١٨٤١ م حتى وقعت اضطراباتٌ خطيرةٌ في جبل لبنان بين النصـارى والدروز استفحـل شرهـا ، حتى اضطرت الدولة العثمانية بتأثير ضغطِ الدولِ الأجنبية أن تضع للبنان نظاماً جديداً تقسمه فيه إلى قسمين : يسود النصارى في قسم منـه ، ويسود الـدروز في القسم الآخر ، وتعين حـاكمـاً للقسمين : وارادت بذلك أن تتفادي الاحتكاك بين الطائفتين . غيـر أن هذا النـظام لم ينجـح ، لأنـه لم يكن طبيعيـاً . وقـد تـدخلت كل من انجلتـرا وفرنسـا في هذا الخـلاف ، وكـانتـا تشعلان نار الفتنة كلما حاول القائمـون على الأمر اخمـادها .

وأخذ الانكليز والفرنسيون يتخذون هذا الاحتكاكَ بين الطوائف ذريعةً للتدخلِ في شؤونِ بلادِ الشام .

في شهر تموز سنة ١٨٦٠ م هبت موجة شديدة من البغضاء بين المسلمين والنصارى أدت إلى مذابح كثيرة . وقد صاحبَ تلك المذابحَ شيءٌ من التخريبِ والتدميرِ والاضطراب ، مما اضطر الدولة أن توقف الفتنةَ بالقوةِ . وبالرغم من أن الاضطراباتِ خمدت وكادت تنتهي ، إلا أن الدولَ الغربيةَ رأت أن لا تضيع هذه الفرصة التي تتيح لها التدخلَ ، فأرسلت البوارجَ الحربية . وفي شهر آب سنة ١٨٦٠ أرسلت فرنسا حملة برية من الجيش الفرنسي ، نزلت في بيروت ، وأخذت تعمل لاخماد الثورة ، كما أنهم خلقوا فتنةً في سوريا ، لتكون باباً لتدخلهم ، فتدخلوا وأجبروا الدولة العثمانية ، على أن تخضع لوضع نظام خاص لسوريا ، يقسمها إلى ولايتين ، وأن تمنحَ لبنانَ امتيازاتٍ خاصةً ، ففصلت لبنانَ عن سائرِ أجزاءِ البلادِ الشامية ومنحته استقلالاً ذاتياً ، يتمتّعُ فيهِ بنظامٍ محليّ للإدارةِ ، على رأسهِ حاكمٌ مسيحيٌّ ، ويعاونه مجلسٌ اداري يمثل السكان .

ولم يقتصر أمر الاهتمام بالغزوِ التبشيريّ باسم الدين

والعلم على أمريكا وفرنسا وبريطانيا -، بل شمل روسيا القيصرية ، فقد أرسلتْ بعثات تبشيريةً ، كما امت بلاد الشام بعثة بروسية (ألمانية) مؤلفة من راهبات (كابزرودت) ساهمت مع باقي البعثات . وبالرغم من تباين وجهات النظر السياسية بين البعثاتِ التبشيرية ، بالنسبةِ لمنهجها السياسيّ ، باعتبارِ مصالحهم الدولية ، فقد كانت متفقةً في الغاية وهي بعثُ الثقافةِ الغربيةِ في الشرقِ ، وتشكيك المسلمين في دينهم ، وحملهم على الامتعاض منه ، وعلى احتقار تاريخهم ، وتمجيد الغرب وحضارته . كل ذلك مع بغض شديد للإسلام والمسلمين ، واحتقارهم واعتبارهم برابرةً متأخرينَ ، كما هو رأيُ كلِّ أوربي وقد وصلوا إلى نتائج كانت هي السبب بما نراه من تركيزِ الاستعمارِ الثقافي والاقتصادي والسياسي في البلاد .

وإليكم ما شهد به بعضُ العلماءِ الأوربيين أنفسِهمْ :

يقولُ العالمُ الفرنسيُّ الكونت هنري دكاستري في كتابه (الإسلام) سنة ١٨٩٦ م ما نصه : (لست أدري ما الذي يقولُهُ المسلمون لو علموا أقاصيصَ القرونِ الوسطى ، وفهموا ما كان يأتي في أغاني المغنين المسيحيينَ ، فجميعُ أغانينا

حتى التي ظهرت قبلَ القرنِ الثاني عشر ميلادي صادرة عن فكر واحـد ، كان السبب في الحـروب الصليبية . وكلّهـا محشـوة بالحقد على المسلمينَ للجهلِ الكلي بديانتهم ، وقد نتج عن تلك الأنـاشيد تثبيت هـاتيك القصص في العقـولِ ضد ذلـك الدين ، ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان . ولا يـزالُ بعضها راسخاً إلى هذهِ الأيام . فكلٌّ منشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين) .

ويقـول الأستاذ ليبـولد فـايس في كتابـه « الإسلام على مفتـرق » : (إن النهضـةَ أو إحيـاءَ العلومِ والفنـون الأوربيـة بـاستمدادِهـا الواسـعِ من المصادرِ الإسـلاميةِ والعـربيـةِ على الأخصّ كانت تعزى في الأكثر إلى الاتصال المادي بين الشرق والغـرب ، لقـد استفـادت أوربـا أكثـرَ ممـا استفـاد العـالمُ الإسـلامي ، ولكنها لم تعتـرف بهذا الجميـلِ ، وذلـك بـأن تنتقص من بغضائها للإسلام ، بـل كان الأمـرُ على العكس ، فـإن تلك البغضاءَ قـد نمت مع تقـدمِ الزمن ، ثم استحـالت عـادةً ، ولقد كـانتْ هذه البغضـاءُ تغمر الشعـورَ الشعبي كلما ذكـرت كلمـة (مسلم) ، ولقـد دخلت في الأمثـال السـائـرةِ عندهم حتى نزلت في قلبِ كـل أوربي رجلاً كـان أمْ امرأة .

وأغربُ من هذا كلِّهِ أنها ظلّتْ حيّةً بعد جميع أدوارِ التبدلِ الثقافيّ ، ثم جاء عهدُ الاصلاحِ الديني حينما انقسمت أوربا شيعاً ، ووقفت كل شيعةٍ مدجّجةً بسلاحها في وجهِ كلِّ شيعة أخرى . ولكن العداءَ للإسلام كان عاماً فيها كلها . وبعدئذٍ جاء زمنٌ أخذ الشعورُ الديني فيه يخبو ، ولكن العداءَ للإسلام استمر وأن من أبرزِ الحقائقِ على ذلك أن الفيلسوفَ والشاعرَ الفرنسي فولتير ، وهو من الدِّ اعداءِ النصرانية وكنيستها في القرن الثامن عشر ، كان في الوقتِ نفسه مبغضاً مغالياً للإسلام ولرسولِ الإسلام ، وبعد بضعةِ عقود جاء زمن أخذ علماءُ الغربِ يدرسون الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشيءٍ من العطف . اما فيما يتعلق بالإسلام فإن الاحتقارَ التقليديّ أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية ، وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوربا والعالم الإسلامي غير معقود فوقه بجسر ، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً في التفكير الأوربي) .

ويقول فايس أيضاً : « والواقع أن المستشرقين الأولين في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى ، يعملون في البلاد الإسلامية ، وكانت الصورةُ المشوهة التي اصطنعوها من

تعاليمِ الإسلام وتاريخِهِ مدبرةً على أساسٍ يضمنُ التأثيرَ في موقفِ الأوربيين من الوثنيين ـ يعني المسلمين ـ غَيْرَ أنَّ هذا الالتواءَ العقليَّ قد استمر ، مع أن علومَ الاستشراقِ تحررت من نفوذِ التبشيرِ ولم يبقَ لعلومِ الاستشراقِ هذه عذر من حميَّةٍ دينيّة جاهليةٍ تسيء توجيهها . أما تحاملُ المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة تقوم على المؤثراتِ التي خلقتها الحروب الصليبية » .

هذا العداءُ الموروثُ لا يزال هو الذي يؤجّجُ نارَ الحقْدِ في نفوسِ الغربيين على المسلمينَ ، ولا يخفى على أحدٍ الدعم والتأييد التام لإسرائيلَ منذ زرعِها من قبل بريطانيا في فلسطين حتى نشأتها التي أحرزت التأييد العالمي على أشلاء مئات ألوف المسلمين وبؤسهم . وأخيراً ما حصل في الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ ولا يزال من دعمٍ وتأييد حكومات وشعوب أوربا بأسرها ، لا حباً بإسرائيل وباليهود ، بل كرهاً للإسلام والمسلمين .

وإنك لَتَجِدُ الغربي يبحث المجوسية والهندوكية والشيوعية فلا تجد في بحثه أي تعصبٍ أو بغضاء ، في حين أنك تجدُهُ حين يبحثُ الإسلامَ تظهرُ عليه علاماتُ الحقد

والكـراهيـةِ ، بعكس النصـارى العـرب ، فـإنهم أقبلوا على الإسلامِ يدرسونه دراسةً عميقةً وعلى اللغة العربيـةِ يجتهدون فيها .

(٣) نتائج الغزو التبشيريّ

كانت هذهِ الغزواتُ التبشيريةُ هي الطلائـع التي مهدت الـطريقَ للاستعمـارِ الأوربي ليستولي على العـالَم الإسـلامي سياسياً بعد أن تمكن منه ثقافياً ، فالاستعمارُ في مدارسِهِ قبـلَ الاحتلالِ وبعدَهُ قد وضع بنفسه مناهجَ التعليمِ والثقافـةِ على أساس فلسفته وحضارته . ثم جعل الشخصية الغربية الأساس الـذي تنتزعُ منـه الثقافـةُ ، كما جعـل تاريخـهُ ونهضتَهُ وبيئتَـهُ المصدَر الأصليّ لما نحشو به عقولَنا . ولم يكتفِ بذلك ، بل تدخل في تفصيلات المناهجِ حتى لا تخرج جزئية من جزئياتها عن فلسفته وحضارته . وكان ذلك عاماً حتى في دروس الدينِ الإسـلامي والتـاريـخ ، فـإن منـاهجهمـا بنيت على الأسـاس الغربي ، فالدينُ الإسلامي يعلمُ في المدارس الإسلاميةِ مادةً روحيةً أخلاقيـةً ، كما هـو مفهومُ الغـرب عن الدينِ ، فحيـاةُ الرسول ﷺ تدرس لأبنائنا منقطعةَ الصلةِ عن النبوةِ والرسالةِ ، وتدرس كما تدرّس حياةُ بسمارك ونابليون مثلاً ، ولا تثيـر في

نفوسِهِمْ أية مشاعرَ أو أفكار . ومادة العبادات والأخلاق تعطى من وجهة النظر النفعيةِ المادية الدنيويَّة فقط كتعليل الصيام بما فيه من منافع صحية بعيداً عن الأمر الرباني بذلك ، والتاريخُ الإسلاميُّ تلصق به المثالبُ التي يخترعُها أعداء الإسلام بدافع من سوءِ القصد ، وسوءِ الفهم ، ويوضعُ ذلك بإطارٍ أسودَ تحتَ اسمِ « النزاهةِ التاريخيةِ والبحث العلميّ » ونبت من غرس المدارس التبشيرية تلك نابتة من المسلمين المثقفين تُعلِّم التاريخ وتؤلِّف فيه على الأسلوب والمنهج التبشيريين . وبذلك صار أكثر المثقفين أبناء الثقافةِ الغربيةِ وتلاميذها . وصار المسلمون يستمرئونَ هذه الثقافةَ ويتعشقونها ويتجهون في الحياةِ طبق مفاهيمها ، حتى صار الكثيرون منهم يستنكرون الثقافةَ الإسلاميةَ إذا تناقضت مع الثقافةِ الغربيةِ ، وصاروا يعتقدون أن الإسلام والثقافةَ الإسلاميةَ هما سببُ تأخرِهِمْ وتخلُّفهم عن ركب الحضارة التي يقودها الغرب ، وسبب اعتقادهم هذا أن الغزو الثقافي الغربي لبلاد المسلمين جاءهم بهذه المفاهيم التي تنطبق على واقع المجتمع الغربي المقيد بقيود الكنيسة وتعاليمها الجامدة ، فتلقفوها من دون فهم أو إدراك وقاسوا الإسلام على غيره فوصلوا إلى هذه النتيجة المنكرة .

وبهذا نجحت الحملاتُ التبشيريةُ نجاحاً منقطع النظير حين ضمت إليها الفئة المثقفة من المسلمين وجعلتها في صفوفِها تحاربُ الإسلامَ وثقافَتَهُ .

وقد تجاوز الحالُ أمرَ المثقفين في المدارسِ الأجنبيةِ إلى أولئك الذين يحملونَ الثقافةَ الإسلاميةَ . فقد هالهم أن يهاجِمَهُم الاستعمارُ الغربيُّ في الطعنِ على دينِهِمْ فصاروا يردون هذا الطعن مستعملين كل ما تصل إليه أيديهم سواء أكان هذا الردُّ صحيحاً أم فاسداً ، وسواء أكان ما يطعن به الأجنبي اسلامهم ، أم مكذوباً عليه ، وكانوا في ردِّهم قد سلموا بجعل الإسلام متهماً ثم أوَّلوا نصوصَهُ بما يتفقُ مع مفاهيم الغربِ ، وهكذا صاروا يردون الهجماتِ رداً مضطرباً كان مساعداً للغزوِ التبشيري أكثرَ مما كان راداً له . والأنكى من ذلك أن الحضارة الغربية المناقضةَ لحضارتِهِم صارت من مفاهيمهم التي يتقبلونها وينسبونها زوراً وبهتاناً للإسلام ، وغلب على الكثيرين منهم أن يقولوا أن الغرب أخذ حضارتَهُ عن الإسلام ، وصاروا يؤوّلون أحكامَ الإسلامِ وَفْقَ هذهِ الحضارةِ مع التناقضِ المطلقِ الذي بين الإسلام والحضارةِ الغربيةِ ، هذا بالنسبة لجمهورِ الشعبِ وللمثقفين ثقافةً إسلامية وأجنبية .

أما بالنسبة لرجالِ السياسةِ فإن البلاء فيهم أعمُّ ، والمصيبةَ أكبرُ ، إذ أن هؤلاء الساسةَ منذ أن جمعهم الاستعمارُ ، واغراهم بالقيام ضد الدولة العثمانية ومنَّاهم ووعدهم ـ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ـ فإنهم منذ ذلك الحين يسايرون الأجنبيّ ويسيرون وفق ما يرسمُ لهم من خططٍ ، ففي أيام الدولةِ العثمانية ، انحازوا إلى الأجنبيّ ، وظاهروه على دولتهم ، وهو أمرٌ لا يجيزُهُ الإسلامُ ولكنهم فعلوه ، وانهم في ذلك الوقتِ بدل أن يحاربوا الفئة الحاكمةَ لإصلاحِ الدولةِ ، ساروا مع عدوّها وعدوّهِم ، حتى كانت النتائجُ المريرة في استيلاء المستعمرِ على بلادهم . ثم صاروا بدل أن يستعينوا بالشعب على هذا المستعمر ، استعانوا به على الشعب . وقد تأثروا به إلى حد افقدهم شخصيتهم الإسلامية ، وسمّمت أفكارهم بآراء سياسية وفلسفية مما أفسد عليهم وجهةَ نظرِهم في الحياةِ وفي الجهاد ، وترتب على ذلك افساد الجو الإسلامي برمَّته ، وبلبلة الأفكار بلبلة ظاهرة في مختلف نواحي الحياة .

فقد جعلوا بدل الجهادِ المفاوضة ، وآمنوا بقاعدةِ « خُذْ وطالبْ » ـ وجعلوا محطَّ انظارِهِم الاستعانةَ بالمستعمر

والاتكال عليه ، دون أن يعوا أن كل استعانة بالمستعمر تعتبر انتحاراً سياسياً ، ورضوا أن يعملوا للاقليمية الضيقة ، ويجعلوها مجالَ عملهم السياسيّ ، ولم يتبينْ لهم أن هذهِ الاقليميةَ هي التي تجعلُ العمل السياسيّ عقيمَ الانتاجِ ، لعدم امكانِ الاقليمية ـ مهما اتسعتْ بلادُ الاقليمِ ـ أن تنهضَ بالأعباءِ السياسيةِ والاقتصاديةِ والعسكريةِ التي تتطلبها الحياة الصحيحة .

ولم يكتفوا بذلك كلِّهِ ، بل جعلوا مركزَ تَنَبُّهِهِمُ الفرديّ مصالحهم الفردية ومركز تنبههم العام هو الدول الأجنبية ، وبذلك فقدوا مركزَ التنبه الطبيعي وهو مبدؤهم ـ وبفقدانِهم مركز التنبهِ الطبيعي فقدوا امكانية نجاح مسعاهم ، مهما أخلصوا فيه ، وبذلوا من مجهود . ولذلك صارت جميع الحركات السياسية حركات عقيمة ، وصارت كل يقظة في الأمة تتحول إلى حركة مضطربة متناقضة تشبه حركة المذبوح تنتهي بالخمود واليأس والاستسلام . وذلك لأن قادةَ الحركاتِ السياسيةِ فقدوا مركز تنبهِهِمُ الطبيعيّ ، فصار طبيعياً أن تفقدَ الأمةُ هذا المركزَ التنبهي لها . وهكذا سممت أفكارُ السياسيين بالآراءِ المغلوطة ، والمبادىء الأجنبية ، إذ قامت في البلادِ

الإسلاميةِ حركات باسم القومية والاشتراكية ، وباسم الـوطنية والشيـوعية ، وبـاسم الدين الـروحي المفصول عن مجـالاتـه الأخرى ، وباسم التعليم والإرشـاد ، وكانت هـذه الحركـاتُ عقدةً جديدةً في المجتمع تضافُ إلى العقدِ الأخرى التي يرزح تحت عبئِها . وكانت نتيجتُها الاخفاقَ والدورانَ حولَ نفسِها ، لأنهـا سارتْ وَفْقَ مفـاهيمِ الحضارةِ الغـربيةِ ، متـأثرةً بـالغزوِ التبشيريِّ فضلاً أنّها نفَّست عواطف الأمـةِ فيما لا ينفـع ، ولا يأتي بخيرٍ ، ومكَّنت للاستعمار من التركّزِ والبقاء .

وهكـذا كـان نجـاحُ الغـزوِ التبشيـري نجـاحـاً منقـطعَ النظيرِ . .

(٤) الجمعيات والحركات السرية

تعتبـر الجمعيات والحـركـات وجهـاً من وجـوه العمـل المعادي للاسلام، إذ لـم يكتف أعداء الإسلام بموجات الغزو التبشيـري عن طريق انشـاء المدارس ودور التبشيـر والمطابـع ودور الاستشفاء بل تعدَّوْا ذلك إلى تـأسيس الجمعيات، ففي سنة ١٨٤٢م تشكلت لجنة لتأسيس جمعية علمية تحت رعاية الارسالية الامريكية وفق برنامجها. وقد سارت هذه اللجنة في طريقها مدة خمس سنوات حتى تمكنت في سنـة ١٨٤٧م من

تأسيس جمعية سمّتها (جمعية الفنون والعلوم) وكان اعضاؤ ها ناصيف اليازجي، وبطرس البستاني من لبنان، إيلي سميث وكورنيليوس فان ديك من الامريكان، والكولونيل تشرشل من الانكليز، وبالرغم من نشاط رجال هذه الجمعيةِ وبذلِ جهودهم الجبارة فيها، فإنه لم ينتسب لها خلال عامين سوى خمسين عضواً عاملاً من جميع بلاد الشام، كلّهم نصارى، واكثرهم من سكان بيروت، ولم يدخل في الجمعية من المسلمين أي عضو مطلقاً. وماتت الجمعية بعد خمس سنوات من تأسيسها، دون أن تترك إلا أثراً واحداً، هو الرغبةُ عند المبشرين في تأسيسسِ الجمعيات. ولذلك أسست جمعية أخرى سنة ١٨٥٠م باسم (الجمعية الشرقية) أسسها اليسوعيون تحت رعاية الأب اليسوعي الفرنسي (هنري دوبرونير) وسارت على منهاج جمعية العلوم والفنون، وماتت بعد موت الجمعية الأولى بقليل، ثم تأسست عدةُ جمعيات كانت كلها تصاب بالاخفاق التام. حتى تشكلت سنة ١٨٥٧م جمعية على أسلوب جديد، روعي فيها أن لا يدخلها أحدٌ من الأجانب مطلقاً، فقد كان مؤسسوها كلهم من العرب. وبذلك أتيح لها أن توفق إلى أن تضم بين أعضائها بعض المسلمين أخذتهم

بوصفهم عرباً. وتأسستْ (الجمعية العلمية السورية) واستطاعت بفضل نشاطها وظهورها بالمظهر العربي، وعدمِ وجود أيٍّ عضو فيها من الغربيين، أن تؤثر في الناس، حتى انتسب إليها عددٌ كبيرٌ بلغ مئة وخمسين عضواً. وكان بين أعضاءِ إدارتها شخصياتٌ بارزة من العرب، منهم محمد أرسلان من الدروز، وحسين بيهم من المسلمين، وانضم اليها كذلك من كل طائفة من نصارى العرب. ومن أشهرهم ابراهيم اليازجي وابن بطرس البستاني. وهذه الجمعيةُ عاشت مدةً أطول من الجمعيات التي سبقتها. وكان من برنامجها التوفيقُ بين الطوائف، وبعثُ القومية العربية في النفوس.

ثم في سنة ١٨٧٥م تألفت في بيروت جمعية سرِّية، وأخذت هذه الجمعية تركز نفسها على فكرة سياسية، فأخذت تبعث فكرة القومية العربية. والذين قاموا بتأسيسها هم خمسة شبان من الذين تلقوا العلم في الكلية البروتستانتية في بيروت، وبعد مدة استطاعوا أن يضموا إليهم عددا قليلا وبدأت تدعو هذه الجمعية عن طريق المنشورات وغيرها إلى استقلال العرب السياسي، وخاصة في سوريا ولبنان. وإلى القومية العربية، وتثير العداء للدولة العثمانية وتسميها (التركية) وتعمل

على فصل الدين عن الدولة وجعلِ القومية العربية هي الأساس. والذي يجزم به من تتبع تاريخ هذه الحركات أن الغربيين همُ الذين أنشأوها، وأنهم كانوا يراقبونها، ويُشرفون عليها، ويهتمون بها، ويكتبون تقاريرهم عنها. من قبيل ذلك ما كتبه قنصل بريطانيا في بيروت بتاريخ ٢٨ تموز سنة ١٨٨٠م برقية بعثها إلى حكومته، ونصها: (ظهرت نشرات ثورية يشتبه أن يكون مدحت مصدراً لها، مع ذلك يسود الهدوء. التفاصيل بالبريد). وكانت هذه البرقيةُ إثر توزيع الجمعية المذكورة منشورات لها في الشوارع ولصقها على الجدران في بيروت. وقد تبعت هذه البرقية عدة رسائلَ من القناصل البريطانيين في بيروت ودمشق. وكانت هذه الرسائلُ ترفق بنسخٍ من النشرات التي كانت توزعها الجمعية. وكانت بمثابة تقاريرَ عن هذه الحركةِ التي ولدت في الكلية البروتستانتية، وأخذت تعمل في بلاد الشام...

وكان العمل بارزاً في بلاد الشام وان كان موجودا في جهة أخرى من البلاد العربية، يدل على ذلك أن المعتمد البريطاني في جدة كتب الى حكومته سنة ١٨٨٢م كتاباً عن الحركةِ العربية جاء فيه: (إلا أنه قد وصل إلى علمي أن بعض

الأذهان حتى في مكة نفسها، أخذت تتحـرك بفكرة الحـرية، ويلوح لي بعـد الذي سمعتـه من تلميـحٍ ، أن هنـالـك خـطة مرسومة، ترمي إلى توحيد نجـد مع بـلاد ما بين النهـرين أي جنوب العراق وتنصيب منصور باشا عليها، وتوحيد عسيـر مع اليمن وتنصيب علي بن عابد عليهـا) ولم يقتصرِ الاهتمـامُ بها على إنكلترا، بل إن فرنسا كذلك كانت مهتمة إلى حد بعيد، ففي سنة ١٨٨٢م كتب أحد الفرنسيين الذين كانوا في بيروت ما يدل على مبلغ اهتمام فرنسا فقد قال: (إن روح الاستقلال منتشرةٌ انتشاراً كبيرا. وقد رأيت شباب المسلمين خلال اقامتي في بيروت منهمكين بتشكيل الجمعيـات العاملة على تـأسيس المدارسِ والمستشفيات والنهوض بالبلاد، ومما يلفت النـظر في هذه الحركـة أنها محـررة من أيِّ أثر للطائفيـة، فإن هـذه الجمعيةَ تستهدفُ قبولَ النصارى بين أعضائها، والاعتمادَ على معاونتهم في العمل القومي). وكتب أحد الفرنسيين من بغداد: «لقد كان يواجهني في كل مكان، وبنفس النسبة، ذلك الشعور العـام المستقر «كـراهية التـرك» ويلوح في الافقِ البعيد طيفُ حركة عربية ولدت حديثاً وسيقومُ هذا الشعب الذي كان مغلوبا على أمره حتى الان بالمطالبة عما قريب بمركزه الـطبيعي في

عالم الاسلام، وفي توجيه مصير هذا العالم».

وكذلك نشطت «الحركة الماسونية» أي: «جمعية البنائين الأحرار» وفروعها مثل ناديي «الروتاري» و«الليونز» التي عملت على استدراج عدد كبير من ابناء المسلمين وأغرتهم بالمال والجاه وجندتهم في صفوفها واستخدمتهم بالتالي لضرب الاسلام وشق المسلمين من الداخل، ومن هؤلاء أكثر الحكام في بلاد المسلمين ـ والعرب خاصة ـ الذين تعاملوا مع الدولة اليهودية بأسلوب مكّن لها عدوانها على جزء من بلاد المسلمين في فلسطين وأظهر اليهود بمظهر القوي الغالب الذي لا يقهر. والواقع أن اليهود لا عزيمة لهم في الحرب ولا شجاعة لديهم في القتال وخصوصا في مواجهة المسلمين، وبالعودة إلى كتب الماسونية وناديَي الروتاري والليونز يظهر جليا الهدف المعادي للإسلام الذي تعمل هذه التجمعات من أجله، ويظهر أيضاً الأشخاص ـ وهم من علية القوم ـ الذين جنّدتهم لتحقيق أهداف اليهود والقضاء على كيان الامة الاسلامية ووحدتها وفكرها.

(٥) جعل السلطة بيد العملاء

منذ أن احتل المستعمر بلاد المسلمين، قام بتثبيت

حكمه لها على الأسس التي رسمها فقد احتل البلاد التي كانت تحت حكم الـدولة العثمـانية سنـة ١٩١٨ وأقام فيهـا الأحكام العسكرية حتى سنـة ١٩٢٢ فركّـز حكمَهُ بـاسم الانتداب في بعضهـا، وباسم الاستقـلال الذاتي في البعض الاخـر، حتى جاءت سنة ١٩٢٤، وفي تلك السنة قامت أعمالٌ عدةٌ أجهز بها المستعمر ولا سيما بريطانيـا على كل مـا فيه شبهـة تمتُّ إلى رجوع الإسلام، ففي تلك السنة ألغى مصطفى كمال الخلافة من الدولة العثمانية بتأثير من المستعمر، وجعل تركيا جمهورية ديمقراطية، فقضى على الخلافة حتى يقضي على آخر أمل في رجوع الدولـة الإسلاميـة. وفي تلك السنة أُخـرج الحسين بن علي من الحجـاز وحبس في قبـرص لأنـه كـان يـطمـعُ في الخلافة، وفي تلك السنة تدخّل الانكليز بواسطة عملائِهم في مؤتمرِ الخلافة الذي كان معقوداً في القاهرة وعملوا على فضّه وإخفاقه. وفي تلك السنةِ أخذ الانكليز يعملون لإلغاء جمعيـة الخلافة في الهنـد، ولاحباط مسـاعيها، وتحـويل تيـارها إلى الناحية الوطنية والقومية.

وفي تلك السنـة ومـا يليهـا قـامت في البـلاد العـربيـة مجادلاتٌ عقيمة حول موضوعين هما: هـل الجامعـة العربيـة

أصلح أم الجامعة الإسلامية؟

واشتغلت الصحف والمجلات مدة في هذا الموضوع. مع أن كلا من الجامعة الإسلامية والجامعة العربية لا تتفق مع المبدإ الإسلامي، لأنها تحول دون وَحْدَة المسلمين، وتصرف أذهانهم عن فكرةِ الخلافة، وفكرةِ حكمِ الإسلام، وكانت أخيراً «جامعة الدول العربية» التي هي في الواقع إسفين خطير فرّق بين بلاد العرب، وفتت الشعب العربي نواة الأمة الإسلامية، ولم تكن «جامعة الدول العربية» جامعة للشمل كما توهم البعض بل كانت تكريساً للانقسام وتعميقاً للهوة بين العرب أنفسهم. وقد كان الاستعمارُ قبل احتلالِهِ، أخذ يُشيعُ بين شبابِ الترك الفاظَ القومية التركيةِ، وأن تركيا تحمل عبء الشعوب غير التركية، وأنه آن لها أن تتخلى عن هذه الشعوب. وألّفتْ أحزاب سياسية للعمل من أجل القومية التركية واستقلال تركيا عن البلاد الأخرى. وأخذ يشيع بين شباب العرب الفاظَ القومية العربية، وأن تركيا دولةٌ مستعمرة، وأنه آن الأوان للعربِ لأن يتخلصوا من نير الاستعمار التركي، وقد ألّفت الأحزاب السياسية للعمل من أجل الوحدة العربية واستقلال العرب.

ومـا أن جاء الاحتـلال، حتى أخذ المستعمـر المحتـل يشيع الفاظ القومية، وأخـذت تحل محـلِ الإسلام، فـاستقل الأتـراك، على أسـاس قـومي وطني، وأخـذ العـربُ يعملون للحكم الذاتي على أساس قومي وطني، وشاعت كلمةُ القومية والـوطنيـة ومـلأت الأجـواء، وصـارت هي مـوضـع الفخـرِ والاعتزاز.

ولم يكتفِ الاستعمار بذلك بل أشاع المفاهيم المغلوطةَ عن الحكمِ في الإسلام وعن الإسلام، حتى صار المسلمون يخجلونَ من ذكرِ كلمة خليفة. ووجد بين المسلمين عرفٍ عام بأن أمر المطالبة بالخلافة تأخّرٌ وجمود، لا يجوز أن يصدرَ من مثقف ولا يقول به مفكر.

وفي هـذه الأجواءِ القـومية والـوطنية قسم العـدو البـلاد الإسلامية إلى دويلات وأقام على كل دويلة نظاما وحاكما تابعاً لنفوذه يأتمر بأمره ويصدر عن رأيه ويطبق ما من أجله جيء به إلى سـدة الحكم ألا وهـو: «القضـاء على الإسـلام» بشتى الوسائل ومختلف الأساليب، وعلى هذا الأساس قامت الدولة التركيةُ، والدولة العراقية والـدولة الايـرانية والـدولة المصـرية والدولة السورية إلخ. ثم أقام في فلسطين وطناً لليهـود تحول

فيما بعد إلى كيـان قومي مستقـلٍّ تحت اسمٍ «دولة اسـرائيل» ليكون رأس جسرٍ له ويُشْغلَ به المسلمون عن الـدول الغـربية كبريطانيا وأميركـا وفرنسـا. وبذلـك ركز الـوضع الجغـرافي، والأجواء العامة، تركيزاً يحولُ دونَ تحريرِ المسلمين.

وقام العدو بواسطة عملائه في قسم من بـلاد المسلمين بتطبيق النِّظام الرأسمالي في الاقتصاد، والنِّظام الديمقراطي في الحكم، والقـوانين الغـربيـة في الإدارة والقضـاء وقـام في القسم الآخر بتطبيق مظاهر أنظمة اشتـراكية أو شبيهـة بالنـظام الاشتراكي. ولم يكتف بذلك بل جعل في نفوسِ أهلِ البلادِ المحافظةَ على النِّظام الذي أقامه، إذ اعتبر أهل كل اقليم من هـذه الأقـاليم إقليمهم فقط دولـة، وصـاروا يفهمـون وجـوب استقلاله عن غيره من الأقاليم، وصار العراقي في تركيا أجنبياً، والسوري في مصر أجنبياً. الخ.

وقامت إلى جانب ذلك المناهـجُ السياسيـةُ الغربيـةُ في البلاد الإسلامية كافـةً، وصار العـرف العام عنـد المثقفين هو فصلَ الدين عن الدولة، وعند عامـة الشعب فصل الـدين عن السياسة، وكان من جرّاء ذلـك أن وجدت فئـاتٌ من المثقفين تـزعمُ أن سبب تـأخـر المسلمين هـو تمسّكهم بـالـدينِ، وأن

الطريقَ الوحيدَ للنهضة هو القوميةُ والعمل لها. كما وجدت فئات تدعي أن سبب تأخر المسلمين هو الأخلاق. فقامت على الأساسِ الأولِ تكتلاتٌ حزبية سياسياً تعمل اسمياً للقوميةِ والوطنية، وتعتبرُ العمل على أساس الإسلام دسيسةً استعمارية، وتعتبرها رجعية وجموداً يؤدي إلى التأخر والانحطاط. كما قامت على الاساس الثاني تكتلات جمعية على أساس الأخلاق والوعظ والإرشاد، وصارت تعمل للفضيلة والخلق، واشترطت على نفسها أن لا تتدخل في السياسة.

وبذلك كانت هذه الأحزابُ والجمعيات الحائِلَ العمليّ الذي صرف الأذهان عن العمل السياسي الواجب شرعاً إلى العمل الأخلاقي فقط الذي هو نتيجة حتمية لتطبيق المسلم أحكامَ الإسلام.

وقامت إلى جانب المناهج السياسية القوانينُ التي تحفظ هذه المناهجَ وتؤمن تنفيذها، فقد سنت قوانين تحول دون قيامِ أحزابٍ أو حركات سياسية إسلامية، واعتبرت تلك القوانين، في مجموعها، المسلمين طائفةً من الطوائفِ، ثم تضمنت تلك القوانين نصوصا مؤدّاها أنه يشترط في الأحزاب والحركات السياسية أن تكون نظمها ديمقراطية، وأن لا تحصر عضويتها

عملياً في طائفة. ومعنى ذلك أنه لا يجوزُ أن تنشأ في البلاد الإسلامية أحزابٌ أو حركات سياسية إسلامية. وأن المسلمين لا حق لهم إلا بالجمعيات الخيرية وما إليها. واعتبرت بعضُ القوانين القيامَ بالأحزاب السياسية الإسلامية جُرماً يعاقب عليه.

ولم يكتف الاستعمار بذلك، بل شجع المؤتمرات الإسلامية لتكونَ الهيات للأمة الإسلامية، فكانت هذه المؤتمرات تتخذ القرارات وتنشرها بالصحف ودُور الإذاعة لمجرّدِ النشر دون أن ينفذ منها شيء، بل دون أن يسعى لتنفيذ شيء منها، بل تبقى مقرراتُها حبراً على ورق.

(٦) إضعاف اللغة العربية

لقد اختار الله تعالى خاتم أنبيائه ورسله محمداً ﷺ عربياً صميماً وهاشمياً قرشيّاً من أكرم العرب وأصفاهم ذهناً وأزكاهم نسباً، وأنزل عليه القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ مبين، فكان بديهياً أن ترتبط اللغة العربية بالإسلام لأنها لغة نبيِّه وبها نزل كتابه، ولا يُفْهَمُ الإسلام فهماً صحيحاً إلا من خلال فهم اللغة والعلم الواسع بها.

من هنا أدرك أعداء الإسلام أن «اللغة العربية» أكبر أداة

لفهم الاسلام، وأنه بحسن المعرفة بها يتمكن الإنسان من فهم الإسلام فهماً أسلم وأوضح، وأن الجهل باللغة العربية يعني بالبديهة انعدام الفهم الصحيح للإسلام أو على الاقل تدنّي مستوى ذلك الفهم وضعفه. فعمدوا بواسطة عملائهم في الداخل الذين سلّموهم زمام أمور المسلمين إلى برامج تعليم اللغة العربية وآدابها فضيّقوا المجال الذي ينبغي أن يحيط به الطالب منها، وألقوا في عقول الجيل أن اللغة العربية معقدة لا تفهم، وأنها صعبة عسيرة على العقل والذهن، بخلاف سائر اللغات في العالم، فتولّد لدى هذا الجيل نفور من اللغة العربية فاحتقروا مؤلفاتها المعتمدة ووصفوها بالكتب الصفراء المعقّدة إلخ. . . وباتت اللغات الأجنبية في نظرهم أهون وأجمل وأنفع لارتباط بعض وجوه الكسب بها، وانطلقت في بعض بلاد العرب دعوات إلى الاستغناء عن الإعراب الذي وضعه علماء اللغة المعتمدون، وإلى تغيير بعض المصطلحات، بل إن منهم من طالب بإلغاء نون النسوة من اللغة ومخاطبة النساء بما يخاطب به الرجال.

ومنهم من دعا إلى اعتماد اللهجات العاميّة بديلاً عن اللغة العربيّة الفصحى، وقد قويت هذه الدعوة في لبنان في

السنوات الاخيرة، كما انطلقت دعوات إلى كتابة اللغة العربية بالحرف اللاتيني، وابتدعت أساليب عجيبة في الشعر سموها «الشعر المنثور» إلى غير ذلك من أساليب التخريب والعبث في أصول لغة عريقة تعتبر من أكبر لغات العالم وأعظمها وأعرقها وأبقاها.

فترتب على ذلك إهمال عام في تلقي علوم اللغة العربية فتدنّى مستوى العلم بها لدى السواد الأعظم من الناس، وهذا بلا شك انعكس سلباً على فهم هؤلاء للقرآن والسنّة، وعلى إدراكهم لعظمة هذا الدين ومكانته السامية الرفيعة.

هل أحسن المسلمون دائماً تطبيق الإسلام؟

بعد عرضنا عوامل ضعف المسلمين نرغب في الاجابة عن سؤال يطرحه الكثيرون، بعضهم على سبيل الاستعلام، والبعض الآخر على سبيل التشكيك، وهو: «هل طبق الإسلام يوماً؟» أي: هل كان المسلمون أقوياء بالإسلام؟، وقد فضلنا أن تكون صيغة السؤال على نحو آخر ليكون أدق وأشمل فتساءلنا: «هل أحسن المسلمون دائما تطبيق الإسلام؟» لأن هذا السؤال يحمل جواباً بديهيا عن السؤال الأول بالايجاب وأن الإسلام قد طبق عملياً بلا شك، ولكن ما نريد التوقف عنده من خلاله هو مدى إحسان المسلمين لتطبيقه في مراحل تاريخهم، إذ لا يكفي أن يكون المبدأ أو الحكم حقاً بنفسه لينال الناس خيره، بل لا بد من تطبيقه تطبيقاً سليماً لتحقيق الغاية الرشيدة منه. وجوابنا الموجز على ذلك:

إن الإسلام قد طُبق عمليـاً ولكن المسلمين لم يحسنوا دائما تطبيقه، وبيانـه: أن المسلمين طبقوا الإسـلام وحدَهُ في جميعِ العصور مُنذُ أن وصل الرسول (ص) إلى المدينة حتى سنـة ١٣٣٦ هـ، ١٩١٨ ميـلاديـة، حين سقـطت آخـر دولـة إسلامية على يد أعداء الإسلام من المستعمرين، وكان التطبيقُ شاملاً ونجحوا فيه إلى أبعـد حدوده، والـدليلُ على ذلـك أن الـدولـة هي التي تـضبق النـظام، والـذي يـطبقـه في الـدولـة شخصـان: القاضي الـذي يفصل الخصـومـات بين النـاس، والحاكمُ الذي يرعى شؤونهم في الداخل والخارج .

أما القاضي فقـد رُوي بطريق التـواتُر أن القضـاة الذين يفصلون الخصومات بين الناس منذ عهود الرسول (ص) حتى نهـاية الخـلافة في استـانبول كـانوا يفصلونهـا حسب أحكـامِ الشرع الشريف في جميع أمور الحياة، سواءٌ أكان الفصلُ بين المسلمين وحدهم أو بينهم وبين غيرهم.

والمحكمـةُ التي كانت تفصـلُ جميع الخصـومـات من حقـوق وجزاءٍ وأحـوال شخصية وغيـر ذلك محكمـةٌ واحـدةٌ، تحكمُ بالشرع الإسلامي وحده، ولم يَرْوِ أحد أن قضية واحدة

فُصلت على غير الأحكام الشرعية الإسلامية.

وأقرب دليلٍ على ذلك سجلاتُ المحاكمِ الشرعية المحفوظة في البلدان القديمة كالقدس وبغداد ودمشق ومصر واستانبول وغيرها، فإنها دليلٌ يقيني على أن الشرع الإسلامي هو الذي كان يطبقه القضاةُ وحده. كما أن غير المسلمين من النصارى واليهود كانوا يدرسون الفقه الإسلامي، ويؤلفون فيه، مثل سليم الباز اللبناني شارح مجلة الأحكام العدلية المستمدة من فقه الشريعة الاسلامية على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله وهو شرح متداول في لبنان خاصة وغيره ممن ألّفوا في الفقه الإسلامي في العصور المتأخرة.

يتضح من هذا العرض الموجز أن الإسلام طُبّق قضائيا، ولم يطبق غيرُهُ في جميع عصور الدولة الإسلامية. أما تطبيق الحاكم للإسلام، فإنه يتمثّل في الأحكام الشرعية المتعلّقة بنظام الحكم والنواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية والسياسة الخارجية. وقد طبقت الدولة الإسلامية أحكام الشرع في كلّ ذلك، فكان من نتيجة هذا التطبيق نجاح الأمة الإسلامية وتقدمها في جميع المجالات بما فيها الفلك والطب، وكذلك الفتوحات الإسلامية التي ملأت شهرتها

الآفاق وما أعقبته من نهضة مدنية وحضارية حيث حل المسلمون.

وعليه فالإسلام طبق عملياً منذ السنة الأولى للهجرة حتى سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٨م) كما أشرنا.

أما إساءة التطبيق فقد حصلت في فترات من تاريخ الأمة الاسلامية، عندما أخذ ولاة الأمور خلالها بعدم الالتزام بالأحكام الشرعية التزاما كاملا كما حصل بعد نهاية الخلافة الراشدة حيث أصبح انتقال الولاية بالوراثة والتعيين عن طريق تولية العهد، بدل أن تكون خلافة، وتكون الخلافة نتيجة المبايعة الصحيحة من المسلمين لإمامهم؛ وإذا كان ذلك لم يؤثر في الدولة الإسلامية يوم كانت قوية منيعة، إلا أن أثره ظهر فيما بعد حين ضعفت الدولة. ولم يقتصر هذا الأثر على أمر بيعة الخليفة، بل تعداه إلى الولاة؛ فمن قبيل ذلك مثلا سكوت الدولة العباسية على عبدالرحمان الداخل في الاندلس وتركها له يستقل فيها، مما أدّى إلى جعل جزء منها يدار ادارة منفردة من قبل ولاة أطلقوا على أنفسهم فيما بعد أسم «أمير المؤمنين». . ولئن لم تنفصل الاندلس في ذلك الوقت عن

جسم الدولة، ولم ينفصل مسلموها عن باقي المسلمين، إلا أن ذلك لم يمنع كونها منفصلة الادارة، الأمر الذي أدى الى تسرّب الضعف لها، وسهل لأعدائها الاستيلاء عليها، وبالتالي أخذهم لها، والمسلمون في عنفوان مجدهم وأوج قوتهم!.. هذا في المغرب.

أما في المشرق فإن إعطاء الولاية العامة للولاة وجعل الصلاحيات الواسعة لهم، حرّك فيهم أحاسيس السيادة وأطمعهم، فاستقلوا بالادارة الداخلية، ورضي الخليفة منهم بذلك، مكتفيا بالدعوة له على المنابر، وبصدور براءة التعيين منه، وضرب النقد باسمه، وارسال الخراج له؛ فكانت الولايات في استقلالها الداخلي تشبه الدويلات كما كان الحال مع السلجوقيين[1] وغيرهم... وهذه الأمور حميعا كانت سببا أدى تدريجاً إلى الضعف والانحلال.

على أن إساءة التطبيق هذه لا تمسُّ الإسلام بشيء،

---

(١) اهم مجموعة من القبائل التركية الذين أسلموا، ثم أعلنوا قيام دولتهم في نيسابور عام (٤٢٩هـ ١٠٣٧م)، ثم اعترف بدولتهم هذه الخليفة العباسي (٤٣٢هـ). وامتد نفوذهم من حدود الهند والصين شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن البحر الأسود شمالاً إلى الخليج جنوباً. وقد انهارت الدولة السلجوقية بعد أن لم يمرَّ أكثر من مائة وخمسين عاماً على قيامها.

لأنها ناتجة عن تصرف الاشخاص المولجين بالتطبيق، وهم بشر قد يصيبون وقد يخطئون؛ فالانسان ليس كائنا صناعياً آلياً يعيش على المسطرة، ويطبق النظام بلا تفاوت بالقياس الهندسي الدقيق، بل هو مخلوق مجتمعي تتفاوت في أفراده القوى والخاصيات، وإن في المجتمع ـ كما نعلن ـ فسّاق وفجّار، وكفّار ومنافقون، ومرتدون وملحدون، لكن العبرة تبقى بالمجتمع في مجموعه وليس في أفرادٍ من هذا المجموع.

وإساءة التطبيق لا تعني أن الإسلام لم يطبق، بل المقطوع به أن الإسلام طُبّق كما لم يُطبق غيره من المبادىء والنظم. إن العبرة في التطبيق للقوانينِ والأنظمة التي تأمرُ الدولة بالعمل بها، ولم تأخذ الدولةُ الإسلامية أي شيءٍ مخالف للإسلام، وكل ما حصل أنّ بعضَ الحكام أساؤوا التطبيق.

على أن الشيء الذي ينبغي أن يكونَ واضحاً أن الواجبَ علينا حينَ نستعرضُ تطبيق الاسلام من التاريخ أن نلاحظ شيئين اثنين:

أولهما: أن لا نأخُذَ هذا التاريخ عن أعداء الإسلام وأن نأخذه بالتحقيق الدقيق من علماء المسلمينَ أنفسهم الحريصينَ

عليه حتى لا نأخُذ الصورة مشوَّهة.

ثـانيهما: لا يجـوز أن نستعملَ القيـاسَ الشمـوليّ على المجتمعِ لا في تاريخِ الأفرادِ، ولا في تاريخ ناحيةٍ من نواحي المجتمع، فمن الخطإ أن نأخذ الحكم على العصر الأمويّ من تاريخ يزيد مثلا. أو أن نأخذ واقع العصر العباسيّ من تصرفات بعض خلفـائه. كـذلك لا يجـوز أن نحكم على المجتمع في العصـر العباسي من قـراءَ كتاب الأغـاني الـذي جَمَـعَ أخبـارَ المجّان والشعراء والأدباء، أو من قراءة بعض كُتب التصوّف وما شاكَلَها، فَنَحكم على العصرِ بأنّـه عصرُ فسقٍ وفجـور أو عصر تـواكـل وانعزالٍ، بل يجب أن ننظُر إلى المجتمع بأكملِهِ.

وحين ندرسُ المجتمع الإسـلامي على هذا الاسـاس، وبـالتحقيق الـدقيقِ نجـدهُ خيـر المجتمعـات لأنـه يقـوم على الإسلام عقيدة ونظاما ومنهجاً للحياة.

ومن ذلك كله نرى أن النظام الإسلامي طُبّق عمليـاًولم يُطبّق غيره في جميع عصور الدولة الإسلامية. وأما نجاح هذا التـطبيق عملياً فقـد كان نجـاحاً منقـطعَ النظيـر رغم الثغرات والعثرات التي حصلت في فترات من تاريخه ولا سيما في نقل

الذين أسلموا ـ وخاصة العرب ـ من حالـة فكريـة منحطة إلى عصر نهضة فكرية يتلألأ بنور الاسـلام الذي لم يقتصـر بزوغ شمسه على العرب وحدَهُم، بل عمّ العالم كلّه. فلقد انـدَفَعَ المسلمونَ في الأرض وهم يَحملونَ الإسلام للعالمِ. ففتحوا بلاد فارسٍ والعراق وبلاد الشام ومصر وشمالي أفريقية. وكانت لكـل شعبٍ من هذه الشعـوب قوميّـة غير قـوميّـات الشعـوب الأخرى، ولغةٌ غيرُ لغاتها وعاداتٌ وتقاليدُ وأديانٌ مختلفةٌ. وما إن استظلّت تلك الشعوب بالحكم الإسلامي وفهمتِ الإسلام حتى دخلت فيـه كلّها، وأصبحتْ جميـعُ هـذه الشعـوب أُمّـةً واحدةً. كانَ نجـاحُ القيادةِ الفكـرية الإسـلامية في صَهْـر هذه الشعوب والقوميّات نجاحاً منقطع النظيرِ.

ولـم يكن الفتـح الإسلاميّ إلا لإزالـة الحواجـز الماديـة بعـدما صـاروا أحراراً من تلك القيـود حتى يُخلَّى بين النـاس والحق الذي يرشدهم إليه العقل السليم وتهديهم إليه الفطرةُ، ولذلك دخلَ الناسُ في دين الله أفواجا

كيف ينهض المسلمون من جديد؟

إنه لسؤال بديهي بعد هذا الذي ذكرناه من عوامل ضعف المسلمين، ولم نشأ أن يكون هذا السؤال: «هل ينهض المسلمون من جديد؟» لأن هذه الصيغة لا تحمل المسلمين مسؤولية النهوض كاملة ولا تمكننا من الإجابة الدقيقة إلا بعد شرح مسهب عن الإسلام ومدى عمل المسلمين به ليجاب إثره بنعم أو بلا. ولكننا لا نريد الكلام في هذا المجال، فقد سبق لنا فيه بيان وافٍ وإنما مرادنا أن نبيِّن كيفية نهوض المسلمين من كبوتهم وتغلّبهم على ما يعانونه من ضعف وتمزُّق واختلاف، أي: أن توضح العوامل والوسائل التي يجب على المسلمين أن يأخذوا بها من أجل الوصول إلى هذا الهدف السامي بعد بياننا لعوامل ضعفهم، إذ لا شيء يحدث في العادة إلا بسبب، فما من أمة قويت أو ضعفت إلا بسبب، ونحن لا ندّعي في عرضنا لأهم أسباب نهوض المسلمين أننا

وضعنا يدنا على شيء جديد لم يعرفه المسلمون من قبل، بل قد عرفوا ذلك من قبل في فترات طويلة من تاريخهم وطبقه بعضهم تطبيقا كاملا، ولكن نريد بهذا تعليم الذين لا يعلمون وإرشادهم إلى بعض ما جاءهم به نبيّهم محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام ليكون المسلم كامل الإسلام، قوي الإيمان، منيع الفكر، حصيف الرأي، صلب الموقف في الحق، فنقول: إن قوة الفكرة الإسلامية المقرونة بطريقتها السليمة كافية لاستئناف الحياة الإسلامية، إذا غرست هذه الفكرة في القلوب، وتغلغلت في النفوس وطبقها المسلمون، وغدا الإسلام عاملاً مؤثراً في الحياة، إلاّ أنه على الرغم من ذلك لا بدَّ من أن تتم أعمالٌ عظيمةٌ وأن تبذل جهود جبارة من أجل الوصول إلى هذا الهدف. فمجرد الرغبة والتفاؤل، والحماسة والأمل، لا يحقق تطبيق الإسلام عمليا بل لا بد من ثورة إسلامية فكرية يقوم بها المسلمون تنطلق من الأسس الثلاثة التالية:

الأساس الأول:
معرفة أسباب الضعف والعمل على إزالتها

إن من الواجب على المسلمين أن يعرفوا العوائق

الضخمة التي تقف في وجه الإسلام ويقدروا خطورتها حق التقدير، ويعملوا ما يستطيعون لإزالتها، حتى يكون القول والعملُ سائرين في الطريق السويِّ بوعيٍ وحزمٍ وإقدام. ليعلم السائرون في هذه الطريق، أنهم ينحتون طريقهم في الصخر الأصمِّ، ولكن معاولهم مرهفة ضخمة كفيلة بتكسير صخورِهِ وليعرفوا أنهم يعالجون أمراً دقيقاً، ولكن رفقهم كفيل بحسن معالجته، وأنهم سيصطدمون بعقبات كبيرة ولكنهم سيتغلبون عليها بعون الله ولا يحيدون عن طريقهم لأنها الطريق التي سار عليها رسولُ الله ﷺ ونحن عندما نسلكها سلوكاً صحيحاً تكون النتائج قطعية لا ريب فيها، والنصر محققا لا شك فيه، شرط أن يكون الاقتداءُ بالرسول الكريم دقيقاً، والسيرُ حسب خطواتِهِ، حتى لا يتعثّر السائرُ، لأن كل خطإٍ في القياس، وكلَّ حيد عن الطريق، يسببُ التعثُّر بالسير والعقم في العمل. ومن أهم الصعوبات التي تعترض السائرين على طريق الاسلام في الوقت الحاضر بالاضافة إلى العوامل التي بيناها آنفا الأمورُ التالية:

الأمر الأول: وجودُ الأفكارِ غيرِ الإسلامية وغزوها للعالم

الإسلامي. وذلك لأن العالَمَ الإسلامي غُزِي بتلك الأفكار المناقضة لافكار الإسلام، والقائمة على أساس مغلوط وعلى فهم خاطىء للحياة ولما قبلها وما بعدها. فوجدت هذه الأفكار لدى كثير من المسلمين تربةً خصبة خالية من المقاومةِ فتمكنت منها، ولذلك تشبعت عقليةُ المسلمين ـ ولا سيما فئة المثقفين ـ بهذه الأفكار، فكوّنت عقلية سياسية مشبعة بالتقليد، بعيدة عن الابتكار، غير مستعدة لقبول الفكرة الإسلامية سياسياً، وغير مدركة لحقيقة هذه الفكرة بل وترفض مجرد البحث فيها، وعلى الأخص من الناحية السياسية، ولذلك كان لزاماً أن تكون الدعوة الإسلامية: دعوة للإسلام، ودعوة إلى استئناف حياةٍ إسلامية، فيُدْعى غير المسلمين للإسلام بشرح أفكاره ويدعى المسلمون إلى العملِ لاستئناف الحياة الإسلامية بتفهمهم الإسلام. وهذا يقضي بأن يبين ما في الأفكار الأخرى غير الإسلامية من زيف، وما في نتائجها من أخطار، وأن تأخذ الدعوة طريقها السياسي، وأن يسعى لتثقيف الأمة ثقافةً إسلامية تبرزُ فيها الناحيةُ السياسيةُ، وبهذا يمكن التغلّبُ على هذه الصعوبة.

الأمر الثاني: وجود البرامج التعليمية على الأساسِ

الذي وضعه المستعمر والطريقة التي تطبق عليها هذه البرامجُ في المدارس والجامعات. وتخريجها لمن يتولى أمور الحكمِ والادارة والقضاء والتعليم وسائر شؤون الحياة بعقليّة خاصّة.

وطريق التغلّب على هذه الصعوبةِ هو كشفُ هذه الأعمال لهؤلاء الحكامِ والموظفين، وللناس جميعاً حتى تبرز بشاعةُ الناحية الاستعمارية الموجودة فيها، ليتنازل هؤلاء عن الدفاع عنها حتى تجد الدعوةُ طريقَها إلى هؤلاءِ الناس.

فالبرامج التعليمية هذه جعلت جمهرة الشباب المتخرجين منهم والذين لا يزالون يتعلمون، يسيرون باتجاه يناقض الإسلام. ولا نقصد البرامج العلمية والصناعية فإن هذه البرامج عالميةٌ، وإنما نقصد البرامج الثقافية التي تؤثّر في سلوك الإنسان في الحياة. والثقافة تشملُ: التاريخ، والأدب، والعقيدة والتشريع، وذلك لأن التاريخ هو تدوين الوقائع والأحداث، والأدب هو التصوير الشعوري لها، والعقيدة هي الفكر الأساسي الذي تبنى عليه وجهةُ النظرِ في الحياة، والتشريع هو المعالجاتُ العمليةُ لمشاكلِ الحياةِ، والأداة التي يقوم عليها تنظيمُ علاقاتِ الأفراد والجماعات، وهذه كلها قد كوَّن بها المستعمر عقلية أبناء المسلمين تكويناً خاصاً جعل

بعضهم لا يشعرُ بضرورةِ وجود الإسلام في حياته وحياةِ أمتهِ، وجعل بعضهم يحملُ عداءً للإسلام منكراً عليه صلاحيتهُ لمعالجةِ مشاكل الحياة، ولذلك لا بد من تغيير هذه العقلية، وذلك بتثقيف الشباب ثقافةً مركّزة، وثقافةً جماعيّة، بالأفكار الإسلامية والأحكام الشرعية، حتى يمكن التغلب على هذه الصعوبة.

الأمر الثالث: كون المجتمع في العالم الإسلامي يحيا ـ بصورة عامة ـ حياة غير إسلامية ويعيش وفقَ طراز من العيش يتناقض مع الإسلام، وذلك لأن أنظمة الحكم، وقواعد الحياة التي يقومُ عليها المجتمع بكل مقوّماتها، والاتجاه النفسي الذي يتجه إليه المسلمون، والاساس العقلي الذي يقوم عليه تفكيرهُم. كلُّ ذلك يقومُ على أساس مفاهيم للحياة تناقض المفاهيم الإسلامية وتخالفها.

فما لم تتغير هذه الأسس، وتصحح هذه المفاهيم المغلوطة، يكون من الصعبِ تغييرُ حياة الناس في المجتمع.

الأمر الرابع: بُعد الشقة بين المسلمين ومفهوم الحكم الإسلامي، ولا سيما في سياسة الحكمِ وسياسة المال، الذي

جعل تصور المسلمين للحياةِ الإسلاميةِ ضعيفاً، وجعل تصوُّر الذين لا يدينون بالإسلام للحياةِ الاسلامية تصوُّراً مخالفاً له في الواقع لا سيما وقد عاش المسلمون مدّة نحوٍ من قرن يحكمون بنظام يناقض الإسلام، ولهذا كان لا بد من أن يرتفع الناس من الواقع السيء الذي يعيشونَ فيه، وأن يتصوروا الحياةَ التي تليق بهم أن يحيوها، والتي يجبُ أن يغيّروا واقعهُم ويحولوه إليها. وكان لا بد أن يتصوروا أن هذا التحول إلى الحياة الإسلامية، لا بد أن يكونَ تحولاً كاملاً غير مجزإٍ، وأن تطبيق الإسلام لا بد أن يكونَ شاملاً، لا تدريجياً بالتجزيء والترقيع، حتى يقرب إليهم تصور واقع الحياة يوم كان عزُّ الإسلام.

الأمر الخامس: وجود رأي عام من الوطنية والقومية والاشتراكية، وقيام حركات سياسية على الأساس الوطني والقومي والاشتراكي، وذلك ان استيلاء الغرب على بلاد المسلمين، وتسلّمه زمامَ الحكم فيها وتطبيقه النظام الرأسمالي عليها أثار في النفوس الميلَ للدفاع عن النفس، فنتجت عنها العاطفة الوطنية للدفاع عن الأراضي التي يعيش عليها، وأثار العصبية العنصرية للدفاع عن النفس والعائلة والقوم، والعمل لجعلِ الحكمِ لهم، فنشأت عن ذلكَ حركاتٌ سياسيةٌ باسم

الوطنية لطردِ العدو من البلاد، وباسم القومية لجعل الحكم عليها لأهلها، ثم تبين للناس فساد النظام الرأسمالي وعدم صلاحيته وانتشرت بينهم دعاية للاشتراكية فقامت تكتلاتٌ باسمِ الاشتراكية لترقيع الرأسمالية، ولم يكن لهذه الحركات أي تصوٌّر سليم لنظامِ الحياة إلا التصور الارتجالي مما أبعدهم عن الإسلام بوصفه مبدأ عالميا. وأبعدهم عن الكفاح السياسي الصحيح القائمَ على أساس المبدأ والعقيدة. فلا بد من جلاء الحقيقة للرأي العام، وتصحيح مفهوم الناس للإسلام ببيان أحقيته ومفهومهم لسواه من الأنظمة اشتراكية كانت أم رأسمالية. ببيان فسادها وفشلها وآثارها السِّيِّئة على المجتمعات التي عاشت تحت حكمها وسلطتها، وحث المسلمين بعد ذلك على حمل لواء دينهم وحده والكفاح من أجل عودته حاكماً للبلاد والعباد، عالية كلمته، خفاقة رايته، وإفهامهم أن العمل في هذا السبيل واجب على المسلمين القادرين يحرم عليهم تركه أو التخاذل دونه، وأنه هو قمّة الجهاد في سبيل الله تعالى.

وملخص القول في هذا الاساس من أسس نهضة المسلمين من جديد:

أن يعرفوا أسباب ضعفهم كلّها ويحيطوا بخطط الأعداء

وأساليبهم الماكرة ـ وقد بيّنا أهمها وأخطرها ـ فيعملوا بجد وحزم على وقف المد التبشيري والغزو الثقافي لبلادهم، وبالتالي القضاء على مخلّفاته وآثاره ودُعاته والمروِّجين لأفكاره، وأن يعززوا اللغة العربية ويعتنوا بقواعدها وعلومها وآدابها لأنها لغة الإسلام ولغة رسول الله محمد (ص) وبها نزل القرآن الكريم، ولا يَفْهَم الإسلام حقّ الفهم إلا المتمكِّنون من لغة العرب حق التمكّن. وأن يعملوا على تعرية الحركات والجمعيات السرية المعادية للإسلام كالماسونية وفروعها من «الليونز» و« الروتاري» وسائر الاحزاب العقائدية الفاشلة الأخرى، وبيان ضررها وخطرها على الإسلام والمسلمين والعمل بحزم للقضاء على هياكلها وتنظيماتها وأدواتها والمروجين لأفكارها.

وأن يعملوا أيضا على نزع السلطة من أيدي عملاء العدو الذين سلطهم وولاهم على المسلمين ليعيثوا في الأرض فسادا والذين هم من جلدتنا ويتكلمون بلغات الشعوب الإسلامية التي يتحكمون فيها، وأن يختاروا من بينهم إماماً مسلماً عادلاً يتولى رعايتهم بحكم الله تعالى وحده لا بحكم سواه.

الأساس الثاني: وحدة المسلمين

الوحدة أساس القوة وعمادها فكيف إذا كانت لقاءاً على الحق؟!

لذلك أمر الله تعالى المسلمين بالاعتصام بكتابه الكريم بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُوا﴾. والفرقة أخطر أسباب الفشل وأضرّها، لذلك نهى الله عباده المؤمنين عنها بقوله: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم وهيبتكم فيسهل القضاء عليكم.

فمن واجب المسلمين أن يتوحدوا:

فكراً: بفهم الإسلام فهما صحيحا واحدا، وعلى الاقل فهماً غير متناقض تناقضاً يؤدي إلى تنازع واختلاف، وذلك بأخذه عن العلماء الموثوقين، ومن مصادره الصحيحة المعتبرة، وخصوصا القرآن الكريم والسنّة النبويّة.

وصفّاً: بأن يكونوا كما أمرهم الله تعالى صفّاً واحداً بقلوبهم وأجسامهم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضُه بعضا، فلا يتفرقوا ولا ينقسموا، وإذا عرض لهم أمر فاختلفوا فيه فليردّوه

إلى كتاب الله وسنّة رسوله، ففيهما الحل ومنهما يؤخذ العلاج.

ووطناً: بتوحيد بلاد المسلمين كلّها باعتبارها وطنا لجميع المسلمين، فلا تقسيم لبلادهم، ولا تشتيت لشملهم، ولا اعتراف بالواقع التقسيمي الذي يعيشه العالم الاسلامي اليوم، بل يحرم على المسلمين أن يعترفوا بهذا الواقع أو أن ينادوا به أو أن يدعوا إليه، أو أن يرضوا به. لأن كل ارض دخلها الإسلام وحكمها المسلمون فهي ديارهم جميعاً، وأيُّ عدوان على قطر من أقطارهم يعتبر عدواناً على المسلمين جميعاً وجب عليهم أن يصدوه، الأقرب منهم للعدو فالأقرب حتى يزول الباطل ويثبت الحق.

وهدفاً: بأن يكون للمسلمين جميعاً هدفٌ واحدٌ لا هدفَ لهم سواه ألا وهو: أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا في كل مكان، وكلمة الله هي كلمة التوحيد (لا إله إلّا الله محمدٌ رسولُ الله، ولا يتم ذلك إلا بالعمل في سبيل نشر الإسلام ونقله للعالَمين باعتباره رحمة لهم جميعاً كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاّ رَحْمةً لِلْعَالَمِين﴾.

والمسلمون في كل عصر مأمورون بنقل هذه الرحمة إلى سائر الناس وتبليغها وتوصيلها إلى من يصلهم خبرها ودعوتهم إلى الأخذ بها باعتبارها سفينة النجاة لهم في الدنيا والآخرة.

وقوىً: بأن يحشد المسلمون جميع طاقاتهم: البشرية (وما أكثرها) والمالية (وما أغناهم بالثروات والمعادن والمال) من أجل إقامة العدل فيما بينهم بمساعدة الفقراء في بلاد المسلمين والمنكوبين والمضطهدين، وأن لا يسمحوا لأي من الدول الكبرى بوضع يدها على ثرواتهم ومواردهم أياً كانت المغريات أو التهديدات.

فلو أن المسلمين اليوم توحدوا: فكراً وصفّاً ووطناً وهدفاً وقوىً على النحو الذي أشرنا إليه لانقلبت الموازين في العالم ولحظيت البشرية بخير عميم.

الأساس الثالث:
العمل بكتاب الله وسنة رسوله

إن الامتثال لشرع الله تعالى خير كله للعامل به وللمتعاملين معه، وبمقدار ما تتسع دائرة العمل بالإسلام وتنتشر بقعته يعم الخير ويزداد، ومقصودنا من هذا الاساس

الأمة بكاملها، أي: أن تتوحَّد الامة وتجتمع على الإسلام، وأن تلتزم به قولاً واعتقاداً وعملاً، على صعيد الفرد والأسرة والمجتمع والدولة، لا فرق في ذلك بين إنسان وآخر. لأن كل مسلم يجب عليه أن يأخذ بالإسلام، ويحرم عليه أن يعمل بسواه من الباطل أو أن يدعو إليه.

فهل يشك عاقل في نهضة المسلمين إذا عادوا إلى العمل بالإسلام كما أمرهم الله تعالى؟!

والله سبحانه وتعالى يؤكد بقوله: ﴿ يا أيها الذين امنوا إنْ تنصروا الله ينْصُركُم ويُثَبِّتْ أقدامَكُمْ ﴾(١).

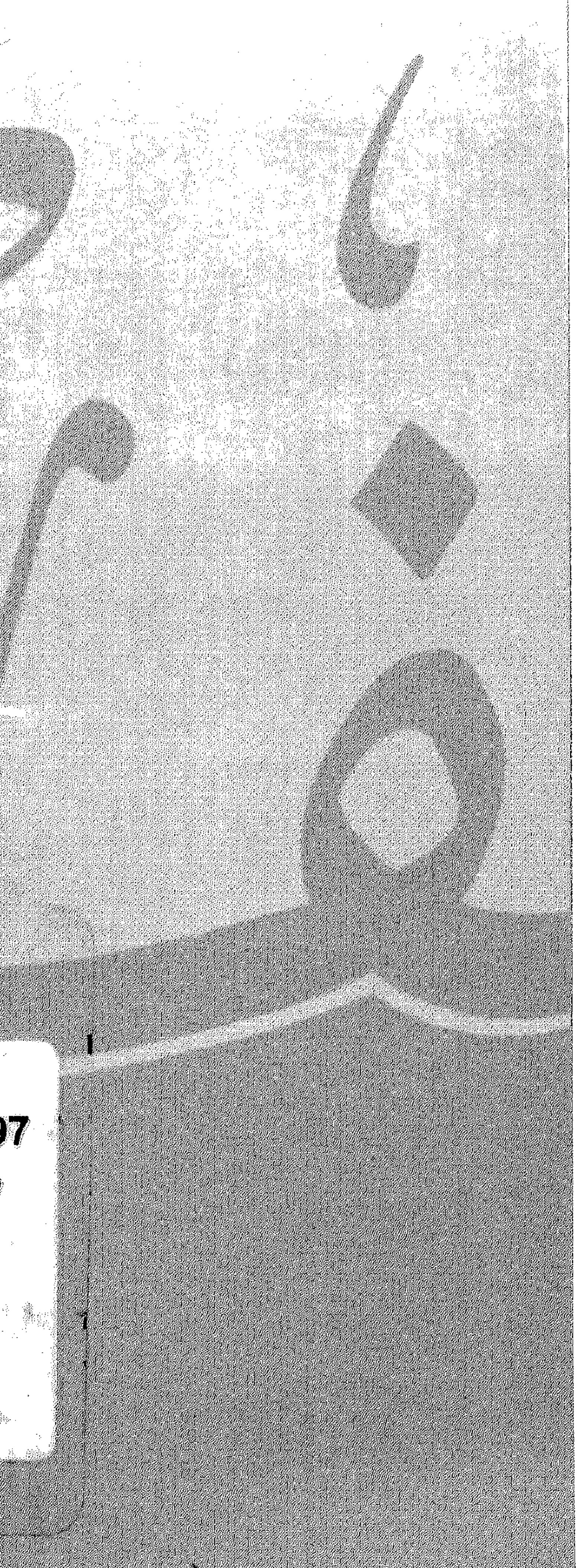
وقوله: ﴿ ولينصُرَنَّ الله من ينصُرهُ إنَّ الله لقويٌّ عزيزٌ ﴾(٢) صدق الله العظيم

---

(١) محمد: ٧

(٢) الحج: ٤٠

الفهرس



عوامل ضعف المسلمين

الأمةُ الاسلاميــةُ ظلــتْ أعلى أمةٍ في العالم حضارةً ومدنيّةً وثقافةً وعِلماً، وظلّتِ الدولةُ الاسلاميّـة أعظمَ الدوَل في العالم وأقدرَها مدة ١٢ قرناً؛ ممّا يؤكّدُ نجاحَ هذهِ القيادة ونجاحَ الاسلامِ في تطبيـق نظامه وعقيدته على الناس.

ولكن السـؤال يجب أن يـرد هنا:

إذا كـان الاسلام نجح هـذا النجاح المنقطع النظير بحيث أخـذ بيد المسلمين فجعل منهـم أقـوى دولة في العالم فكرياً ومادياً، فما هـي العـوامـل التي أدت إذاً إلى ضعفهم على هذا النحو الذي نراه اليوم؟